① روايات الأدب الإسلامي

الدكتور : عبد الله بن صالح العريني

دفء الليالي الشاتية

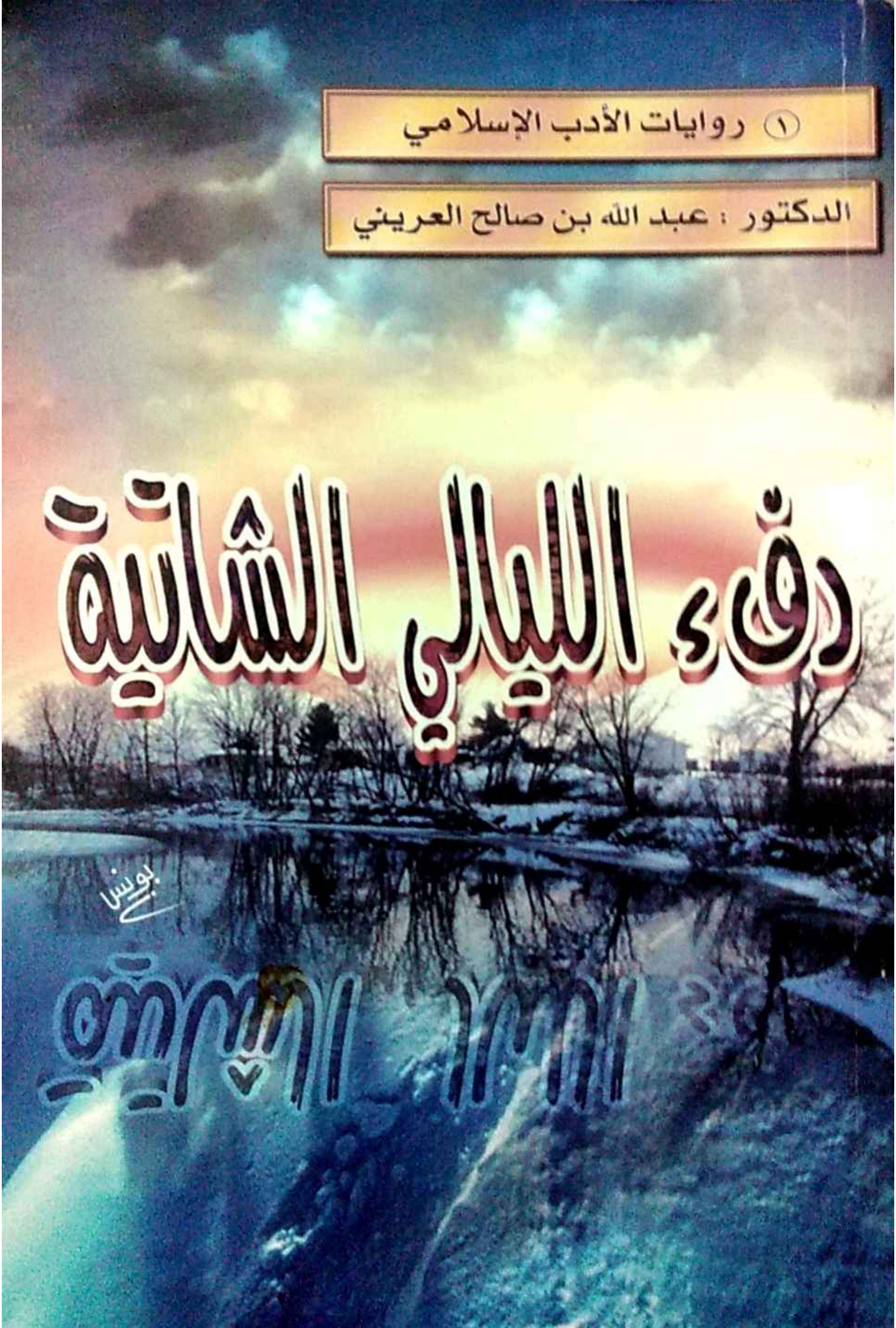

① روايات الأدب الإسلامي

الدكتور: عبد الله بن صالح العريني

دفء الليالي الشاتية

ⓒ عبدالله بن صالح العريني، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العريني، عبدالله بن صالح

دفء الليالي الشاتية - ط٢ - الرياض.

١٧٥ ص؛ ١٤× ٢٠ سم

ردمك: ٢-- ١٨٤- ٤١-٩٩٦٠

٢- القصص العربية - السعودية أ -العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٥٣١ ٢٢/٥٤٤٠

رقم الإيداع: ٢٢/٥٤٤٠

ردمك: ٢-- ١٨٤- ٤١-٩٩٦٠

الطبعة الثانية

١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

ص.ب ٨٦٨٣٢ - الرياض ١١٦٣٢

الإهداء

إلى ...

الذين يفضلون

أن يضيئوا شمعة

بدلا من ...

سبِّ الظلام

عبد الله بن صالح العريني

الفصل الأول

تبدو كحلم غامض تلك الساعات التي استغرقتها رحلة السفر الطويلة بين «الرياض» و«نيويورك»، لقد دامت الرحلة أكثر من ثلاث عشرة ساعة من الطيران المتواصل، ومع ذلك فقد مرَّت كأنَّها حلم عابر لدى أكثر الركاب.

وما إن بدأ أحد ملاحي الطائرة السعودية يعلن للجميع الوصول إلى مدينة «نيويورك»، ويتمنى لهم طيب الإقامة، حتى راح كل واحد من الركاب يتأهب استعداداً للنزول من الطائرة، كانت حركات الجميع تشي بالكثير من مشاعر الترقب والحذر، فيما كانت بقايا نوم قلق يلحظها الناظر في وجوه أكثر الركاب.

التفت «عبد المحسن» فوجد زوجته «أمل» بجانبه، وابنته «منايز» تداعب لعبتها الصغيرة. قال لزوجته وهو يغالب النعاس الذي ما زال مسيطراً عليه:

- الحمد لله على السلامة.

ردَّت عليه بصوت واهن ينم عن كثير من الخوف المبهم:

- الحمد لله على السلامة.

ثم تطلعت إليه لتقرأ مظاهر ارتياح بالغ تنطق بها أسارير وجهه وقالت له :

- أتذكر ؟؟ كانت الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل حينما أقلعت بنا الطائرة من «الرياض» ، وبعد هذه الساعات الطوال نصل إلى هنا فنجد أننا لم نتعدَّ السابعة صباحاً!! .

سكتت برهة ثم أضافت :

- لعلك لا تصدق أنني لم أنم حتى هذه اللحظة ، كلما تلفتّ يمنة أو يسرة رأيت أكثر ركاب الطائرة يغطون في نوم عميق ، قلت في نفسي : ما أسعدهم!

أما أنا فلم يغمض لي جفن ، هذا الصندوق السحري الذي يحملنا في أجواء الفضاء ، لم يكن صالحاً لنوم واحدة مثلي لم تتعود هذه الرحلات الطويلة ، لقد أحسست أنني أنا الوحيدة بينهم التي ظلت تهمس في أذن الليل الأصم (ثم سكتت قليلاً وأردفت) :

حقاً ما أطول الليل على من لم ينم!

كانت تريد الاسترسال في الحديث ، لكن طفلتها الصغيرة قطعت كلامها بقولها :

- ماما . . !! هل أفك حزام الأمان؟

ولم تنتظر حتى تسمع الإجابة، بل راحت تحاول أن تتخلص من ذلك الحزام الذي منعها من الحركة، ثم توقفت عن ذلك حين رأت والدتها تلوح لها بيدها مهددة وهي تقول:

- انتظري يا «منایر»! (ثم أردفت):

- بعد قليل سوف يسمح لنا بذلك.

وبعد برهة من الزمن كان ركاب الطائرة يقفون في صف طويل ويتدافعون باتجاه الباب الذي فتح للنزول. . نهض «عبد المحسن» وأنزل حقيبتين يدويتين من المكان الذي يعلو مقعديهما.

وفيما شرعت «أمل» بتخليص الطفلة من حزام الأمان، وترتيب ملابسها، كان الزوج يعاود إلقاء نظرة إلى مكانهما خشية أن ينسيا شيئاً من الأشياء.

وحين بدأ الصف الطويل يتناقص أفراده قال «عبد المحسن»:

- سأحمل الحقيبتين معي. . وأنت سوف تمسكين جيداً بيد «منایر». . احذري أن تنشغلي عنها.

- لا عليك . . اتكل على الله .

- على الله توكلنا .

ثم مضى باتجاه باب الطائرة، تتبعه زوجته وابنته .

كان الجميع يمضون باتجاه جوازات المطار، وكان «عبد المحسن» يتكلم بصوت لا يكاد يسمع، وحين أصغت إليه تناهت إلى سمعها كلمات عرفتها جيداً، إنه دعاء الوصول من السفر، ثمَّ أتبعه بالدعاء الذي يقوله المسافر إذا عزم على دخول بلدة، أو أرض غريبة عليه، كان يقول في نبرة وادعة :

اللهمَّ ربَّ السموات السَّبعِ وما أظْلَلْنَ،

والأرضين السَّبع وما أقلَلْنَ،

وربَّ الشياطين وما أضلَلْنَ،

وربَّ الرياح وما ذرَيْنَ،

أسألك خيرَ هذه القرية

وخيرَ أهلها، وخيرَ ما فيها،

وأعوذ بك من شرِّها،

وشرِّ أهلها، وشرِّ ما فيها .

وأدركت للحال أنها نسيت أن تقول هذا الدعاء، فراحت تقوله بينها وبين نفسها، كانت تسير وهي ممسكة بابنتها بقوة، في الوقت الذي ظلت فيه الطفلة تسير بخطوات وئيدة مضطربة، وكأنما تقتلع أقدامها اقتلاعاً من الأرض، بسبب غلبة النوم عليها.

سارت الإجراءات سريعاً بمرونة مدهشة.. وبعد فترة استراحة في المطار كان الثلاثة يستقلون إحدى السيارات باتجاه الفندق الذي سيقضون فيه يوماً واحداً على الأقل ريثما يتوجهون بعد ذلك إلى ولاية «كلورادو» حيث يحطون فيها الرحال.

كانت سيارة الأجرة تجوب شوارع المدينة الأمريكية الكبيرة بسرعة، وبدا أن الثلاثة في سباق مع كل شيء، كل المارة يجرون مسرعين.. ليست هناك لحظة واحدة لالتقاط الأنفاس.. خيّل إلى «أمل» أن كل شيء يسير بسرعة شديدة.. لطالما سمعت عن المدن الصناعية وما فيها من ضوضاء وصخب، وها هي ذي الآن في واحدة من أكبر تلك المدن.. «نيويورك» مدينة العمل والتجارة.. ذات القلب الصلد القاسي.. مدينة الآلة الكبيرة التي تطحن كل

شيء في دورانها . . إنها كغيرها لا تعرف شيئاً اسمه العواطف، والمشاعر الإنسانية، ولا تدين إلا للقوة . . ها أنت يا «أمل» في «نيويورك» كبرى مدن «أمريكا» وسادسة مدن العالم من حيث كثرة السكان .

لم يكن ليخفى على الزوج ما بدا على الأم وابنتها من مظاهر التوجس والانبهار . . وهنا قال لنفسه :

- ترى ما شعور «أمل» لو عرفت أنها الآن في أكثر المدن الأمريكية ارتفاعاً في معدل الجريمة؟ وأن فيها أكثر مدمني المخدرات؟ وأنه ورغم كثرة هذه العمارات التي تناطح السحاب إلا أن مشكلات السكن من أبرز مشكلاتها المستعصية على الحل!! ومرّت بخياله الإحصاءات الخاصة بمعدلات الجرائم المختلفة في هذه المدينة . . . فيما كانت «أمل» تحدّق بكل شيء . . بدا لها أن الإنسان قد تحول إلى آلة خرساء رغم أنفه . . إنه يجري . . ويجري . . ، ويلهث . . حتى تتقطع أنفاسه دون أن يشعر بذاتيته، وسر وجوده في هذه الدنيا . . . وهو في غفلة عن شيء خطير اسمه «الآخرة» .

زحام السيارات لافت للنظر، وهالها كثرة العابرين حين

تتوقف السيارات عند الإشارة الضوئية . . كانت تعبر الطريق نساء بملابس فاضحة، وكانت هناك بعض العجائز يقطعن الطريق وهن يمشين الهوينا . . خليط من البشر، فيهم الأسود البشرة، بينما أكثرهم من ذوي البشرة البيضاء، الشديدة البياض، بدت ملابس بعضهم في صورة منتظمة مرتبة، كتلك التي يظهر بها رجال الدعاية للعطور الرجالية، والألبسة الرجالية، وبجانب هذا ربما وقف رجل أشعث الشعر، ممزق الملابس.

لكن قاسماً مشتركاً يبدو في الجميع: رجالاً، ونساءً، كباراً، وصغاراً؛ هو السرعة في المشي، وعدم الالتفات، وكأنما ليس شيء أمام الواحد منهم سوى طريقه فقط.

كل واحد مشغول بنفسه، ولا يجد وقتاً للتفكير في الآخرين، وقلّ أن يتبادر إلى السمع أصوات أحاديث مشتركة.

لم تؤخذ «أمل» بمنظر العمارات الشاهقة، والقطارات، والأنفاق، والجسور، ولوحات الدعايات المختلفة المثيرة، فهي قد رأت ذلك كثيراً في التلفزيون من خلال البرامج والمسلسلات الأمريكية.

كانت تنظر إلى الخارج ثم تستقر نظراتها بين آونة وأخرى على ابنتها التي راحت في سبات عميق، وزوجها الذي ما زال يطالع بين يديه كتاباً عن «نيويورك»، يعطي القادم معلومات يستفيد منها في إقامته في هذه المدينة الصاخبة.

حينما انعطفت السيارة يميناً باتجاه طريق فرعي قال «عبد المحسن» مخاطباً السائق:

- لقد وصلنا الفندق.. أليس كذلك؟

لم يتفوه السائق ببنت شفة، فراح يعاود السؤال بطريقة أخرى، قال:

- نحن دخلنا المنطقة التي فيها الفندق...

تحركت شفتا السائق بكلمات مقتضبة، ألقاها على متحدثه بكل برود:

- ليس بعد يا سيدي.

وحينما وصلوا إلى الفندق، نقد سائق السيارة أجرته، ثم تقدم إلى موظف الاستقبال، فيما جلست الزوجة وابنتها على أحد الكراسي أمام مكتب الاستقبال، وقد خيل إليها أنه لا همّ لهؤلاء الموجودين في الصالة إلا النظر إليها، فإذا نظرت إلى أحدهم فوجئت أنه في عالم آخر بعيد عما كانت

تظن، فزادها ذلك جرأة في التحديق في كل شيء.

كان «عبد المحسن» قد أنهى إجراءات الفندق، وأقبل نحوها يمسك بمفتاح الغرفة التي استأجرها، ووراءه سار أحد الخدم الذي بدا مارداً أسود مخيفاً، إنها تعلم أنهما سينتقلان من هذا الفندق إلى فندق آخر في مدينة «دنفر» ريثما يستطيع زوجها أن يتدبر أمر سكنهما في منزل خاص، ولذا وطَّنت النفس أن تتقبل ظروف الحياة في الفنادق حتى يستقر بهما المقام.

وبدا لها أن الفنادق جميعها مهما كانت فخمة وفاخرة، فهي جميلة في الأيام الأولى فقط.. ومع أن كل فندق يحاول إقناعك أنه منزلك الثاني إلا أن الإنسان سرعان ما يملُّ جوّها وطبيعتها، ومأكولاتها، ويحن إلى سكن خاص به، مهما كان بسيطاً متواضعاً.

كان من حسن حظها أن غرفتهم في الطابق الثامن عشر، وهذا منحها فرصة النظر إلى مدينة «نيويورك» والتطلع إلى أكبر قدر ممكن من معالمها القريبة من الفندق.

كان هنالك مبنى لا تخطىء العين معرفته، مبنى الأمم المتحدة الذي نقشت صورته في ذهنها، من كثرة ظهوره في

الصحف، والمجلات، والتلفزيون، كان في مواجهتها تماماً، كان الفندق الذي يسكنانه قريباً من ذلك المبنى الشهير، ورأت أيضاً «عمارة أمباير استيت» التي كانت ذات يوم أطول مبنى في العالم، وبالقرب منها البرجان الشهيران لمبنى مركز التجارة الدولي، عمارتان ضخمتان كل واحدة منهما في (١١٠) طوابق.

كم تود لو أنها تغمض عينيها ثم تفتحهما ؛ لتجد نفسها قد استقرت في الولاية التي سوف يدرس فيها «عبد المحسن»!!

ترى.. هل ستكون المدينة الأخرى غولاً مرعباً كهذه المدينة المخيفة؟ أم سيستقران في منطقة هادئة بعيدة عن الصخب والضوضاء؟ وانشرح صدرها حين مضت تتخيل مكاناً هادئاً مطمئناً في غربتها عن بلادها.

خيّل إليها أنها تتمنى المستحيل.. لكنها لم تمض في خواطرها، إذ سرعان ما قطعتها بتأملها فيما حول الفندق من معالم، ثم عادت تنظم الملابس وتنقلها من الحقيبة وتضعها بعناية في خزانة الملابس، وقررت ألا تستبق الأمور، فلكل حادث حديث.

* * *

الفصل الثاني

بعد عشرة أيام من مغادرة «نيويورك» والوصول إلى ولاية «كلورادو» حيث الإقامة الدائمة لهم، كان «عبد المحسن» يطوي في يده عقد إيجار المنزل الذي وقَّعه قبل قليل مع صاحبة المنزل العجوز، ويقول بلهجة فيها فرح وغبطة:

- يا ربِّ لك الحمد والشكر.

لقد كان فرحاً لسرعة حصوله على هذا المنزل المريح، وهو مدين بالشكر لـ «هشام» الطالب العماني الذي رآه في الجامعة، وأخبره عن حاجته إلى سكن، فدلّه «هشام» عليه، وقدمه إلى «مسز بودي» التي وافقت في الحال؛ حين تأكد لها أنه سيدفع الإيجار الذي تطلبه.

وراح يتعرف على المبنى مرة أخرى، فيما كانت زوجته تقوم بترتيب الملابس، ووضعها في مكانها من الغرفة، كانت تشعر بكثير من الارتياح بعد أن ودَّعت الفنادق، وعالمها الصاخب المزعج.

كان يتنقل في أرجاء المنزل، حينما سمع صوت استغاثة! كانت زوجته تناديه بصوت مرتفع، فأسرع يقطع الردهة إلى غرفة الملابس، وحين وصل كانت «أمل» ترفع بيديها خزانة الملابس التي أوشكت أن تهوي عليها.

جرى مسرعاً، ورفع الخزانة بقوة حتى ثبتت في مكانها، فراحت «أمل» تعدل من وضع ملابسها، وهي تقول:

- كاد هذا يميتني!

- الحمد لله على سلامتك، (ثم أردف قائلاً):

- ولكن كيف حدث هذا؟

ردَّت:

- مددت يدي إلى أعلى خزانة الملابس.. لم تكن مستقرة تماماً، فإذا بها تهوي نحوي.. لم أستطع تحمل ثقلها الكبير.. فبدأت يداي تضعفان عن حمل هذه الخزانة الثقيلة، لكنك جئت فأنقذتني في اللحظة الحاسمة.

كان ينظر إليها وهو يبتسم لوجود شيء من التراب والأصباغ على وجهها بسبب قيامها بتنظيف المنزل، وتلميع الأثاث.

قال لها:

- ما أسرع ما وضعت المكياج على وجهك!

- مكياج؟!

- نعم..!

- أنت لا تستطيعين أن تري نفسك إلا بمرآة.. أليس كذلك؟ ما رأيك أن تقفي لحظات أمام المرآة؟

وقبل أن يكمل كانت قد هرعت إلى مرآة تسريحة غرفة النوم، وإذا بها تزمّ شفتيها بكبرياء، وتلتفت إليه ضاحكة وهي تقول:

- الآن فقط عرفت لم تتضايق من المساحيق التجميلية والأصباغ!!

واستغرق الاثنان في ضحك متواصل قطعته وهي تقول:

- أريد أن أقول لك شيئاً، ولكني خائفة!

- خائفة؟ (ثم أردف ذلك بقوله):

- ممن؟

- منك أنت.

- مني أنا؟

- نعم . . إني متضايقة من كثرة هذه التحف الخاصة بصاحبة المنزل .

- وهل هذا ما يجعلك تخافين مني؟

- نعم . . لقد انكسرت حتى الآن على يدي أربع تحف ، وإن لم تتدارك الوضع فستدفع ضعف الإيجار ؛ تعويضاً عما سيحدث للبقية الباقية من هذه التحف ، والصور ، والتماثيل .

- أربع تحف لـ «مسز بودي» . . هذا كثير !

- ها أنت تراها في كل شبر من هذه الدار ، واللوحات تكاد تغطي مساحة الجدار كله ، هذه العجوز مغرمة بجمع التحف بشكل غريب . . ولذا فعندما أنظف الغرف ، كنت أحرص على عدم كسر شيء مما أمامي ، فأنسى ما خلفي ، أو بجانبي ، فأكسره دون قصد .

- والحل في رأيك . . ما هو؟

- حاول إقناعها أن ترفع هذه الهدايا إلى حيث تسكن في الطابق الأعلى من المنزل . . في الدور الثاني .

- هذا ليس حلاً؟

- لماذا؟

- لأن إقناعها في حد ذاته مشكلة، فقد وضعت كل واحدة من تلك التحف بعناية فائقة، وهي تدرك كذلك أن جمعها بشكل اعتباطي في الدور الثاني سيكسر بعضها، وهذه اللوحات أيضاً لن تكون لها قيمة إذا تكدست فوق بعضها كشأنها في المخزن.

- لم لا تخبرها الحقيقة؟

- الحقيقة. . . !! (وتوقف عن الكلام مندهشا).

- اذكر لها أن عندنا طفلة لا تستطيع أن تقاوم نزعة الفضول في نفسها. . وأنها إن لم تتدارك الوضع فستجد تحفها حطاماً. . ونحن غير مسؤولين بعد أن أوضحنا لها جلية الأمر.

- أما هذا العذر فلا تستطيع إزاءه إلا الموافقة!

ما رأيك أن أصعد إليها الآن؟ (ثم قال بلهجة عتاب):

- لكن على شرط! أن تتوقفي عن التنظيف حتى ننقل آخر واحدة منها. يكفي التحف الأربع التي سندفع قيمتها.

قالت له مازحة:

- طيِّب! ما رأيك أن أجعلها خمس تحف بدل أربع، ما دمت متضايقاً بهذا الشكل؟

قالت هذه الجملة الأخيرة وهي تلوح بتحفة صغيرة بيدها . . .

نهض عبدالمحسن نحوها قائلاً :

- أرجوك . . .

- يعني لست غاضباً من أجل . . ؟

- أبداً .

- طيِّب ، ومع ذلك فها هي التحفة الخامسة سوف تتحطم بمشيئة الله (وكانت قد اختارت تمثالاً نصفياً مصغراً) ، ورمت به بعيداً ، ثم هربت من أمامه ، ورنات ضحكاتها تصل إلى مسمعه ، وهو يلحق بها متظاهراً بأنه يريد عقابها ، لكنه ما إن وازن سلم المنزل حتى تركها وشأنها ، وقرر أن يصعد لمقابلة العجوز ، فيما كان يردد :

- حسبي الله عليك ، حسبي الله عليك .

بدت السيدة العجوز متفهمة لأهمية رفع التحف من الدور الأرضي إلى مكان آخر . . لا يدري كيف جاءت على لسانه تلك الكلمات التي جعلت العجوز تقدر ذلك بسرعة؟ قال لها :

- ليس المهم أن تأخذي تعويضاً عن التحف الخمس التي

كسرت، لكن المهم حقاً أنها لا يمكن أن تعاد . . أنا متأكد أن كل تحفة تحمل ذكرى عزيزة على نفسك، وأنها ترتبط بموقف جميل في هذه الحياة، ترغبين أن يكون أمام ناظريك دائماً . . إنني أشفق على ضياع تلك الذكريات الجميلة، ولذا أرجو أن ترفع التحف بسرعة . . إن طفلتي الصغيرة لا تقدر بالطبع قيمتها . . (ثم توقف قليلاً وسألها) . .

- أليس كذلك يا «مسز بودي»؟

ردت بكلمات مقتضبة :

- أوه . . لا بأس (ثم تابعت) . . عليكم بنقلها إلى هنا بكل اهتمام . . . (وأردفت) . .

- لا تفكر كثيراً بالأشياء التي كسرت .

لم يمض كثير وقت حتى كان الدور الأرضي خالياً من الأشياء التذكارية القابلة للكسر . . بقيت ثلاث لوحات زيتية لمناظر طبيعية خلابة، إحداها لوحة مصورة عن إحدى لوحات الرسام الأمريكي الشهير «أودوبون جيمس» ذاك الذي عرف بلوحاته الزيتية النابضة بالحياة .

أخذت «أمل» تلك اللوحات ووضعتها في أمكنة بارزة من صالة الجلوس، ثم انكبت على تلميع القطع الخشبية

التي تستقر في صالة المنزل .

قال لها وهو يتعمَّد رفع الصوت قليلاً :

- أمل! بقي شيء مهم أيضاً .

- شيء مهم؟!

- نعم!

- أهم شيء هو السلامة من تلك التحف ، وقد انتهت مشكلتها .

- لا . . بل هو أهم من التحف!

- صحيح . . ؟؟

- نعم . . ما رأيك أن نطلب منها أن تأخذ الكلب الذي يقبع عند باب المنزل؟ لتأخذه السيدة «بودي» معها إلى الدور العلوي .

توقفت «أمل» عن العمل ، ورفعت رأسها ، ونظرت نحوه وهي تقول :

- وإذا لم توافق؟

- نقترح عليها أن تضعه في الجانب الخلفي من المنزل ونقول لها : إن طفلتنا لم تتعود رؤية الكلاب ، وهي

تخيفها، وتسبب لها أحلاماً مزعجة.

- لا تنس أن هذا الكلب قد وضع للحراسة، وهي قضية تهمنا جميعاً.

- لو كان الكلب في آخر المنزل لأدى المهمة المطلوبة من دون أن يزعجنا بصوته وشكله ونظراته الوحشية.. إنني أحس بالقشعريرة وأنا أجده يسير بجواري ويشمشم ملابسي.

- كما تريد.

- أنت غير متحمسة؛ لأنك لا تخرجين كثيراً.. أما لو رأيت كيفَ ينهض ثم يأتي باتجاهي، ويسير بمحاذاتي في الدخول والخروج لأبغضتي المنزل من بغضك له.

- خلاص.. ما دمت ترى ذلك.

- يعني موافقة؟

- المهم أنتَ؟

- لا.. المهم أنت.. لأنك ستبقين بالبيت أكثر، وتريدين أن تشعري بالأمان.

- لا بأس إن كان سيوضع خلف المنزل.. (ثم أردفت) بصراحة أشعر أنه يعطي قدراً من الأمن.

- يا بنت الحلال . . اتكلي على الله **﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾** . .

ثم أردف قائلاً :

- اللصوص هنا عيال حرام، لو تسلطوا على أحد ما نفع كلب ولا غيره .

- أنا قلت رأيي .

- بس! يبعد عن وجهي . . ولا يهم أيكون عند صاحبته فوق . . أم خلف المبنى؟

- ما دمت مصمما على ذلك اصعد إليها فوراً، يمكن أن توافق «مسز بودي» مثل ما وافقت على نقل التحف من قبل .

صعد من فوره إلى صاحبة المنزل، وما لبث إلا قليلاً ثم نزل بعد ذلك .

لم تدر «أمل» كيف سيقنع زوجها تلك العجوزِ العنيدة؟ لكنها فوجئت به ينزل مع «مسز بودي» التي بدا عليها التبرم والضجر وهي تردد :

- أنتم طلباتكم كثيرة . . هذا آخر طلب سوف أوافق عليه . . حسنا . . سوف يكون مقر الكلب في آخر المنزل،

إنه هناك سوف يكون قريباً منّا عند الحاجة إليه .

كانت تقول تلك الكلمات وهي مولية شطر الباب الخارجي تنادي على الكلب باسمه .

بدا أن الزوج قد حقق انتصاراً حين استطاع اقناع السيدة العجوز برأيه للمرة الثانية . . قال مخاطباً «أمل» بلهجة تنم عن الثقة بالنفس :

- والآن ما رأيك؟ هذه العجوز لو اجتمع أهل مدينة «دنفر» كلهم على زحزحتها عن رأيها ما استطاعوا . .

قالت له وابتسامة تشرق في وجهها :

- أنت تظهر شطارتك على العجائز فقط ! !

- ماذا تقصدين؟

- يعني هل تستطيع إقناعي مثلاً - وأنا لست عجوزاً ولله الحمد -؟

- إقناعك؟ . . إقناعك بماذا؟

- إقناعي أن المتنبي لا يعنيك بقوله :

وتعظم في عين الصغير صغارها وتصغر في عين العظيم العظائم

انفرجت شفتاه عن ابتسامة حلوة وهو يقول :

- أنا المخطىء الذي أمدح لك المتنبي ، وأشجعك على قراءة شعره ، وهذه هي النتيجة . . الله يسامحك .

وتعالت ضحكاتهما ، ثم انقطعت فجأة لدى مرور «مسز بودي» بجانبهما ، وهي تزم شفتيها بامتعاض ، وتسير متثاقلة نحو سلم المنزل متجهة إلى غرفتها في الطابق الثاني ، لقد بدا واضحا أنها نادمة كل الندم على إبعاد كلبها المدلل . . وحين صعدت العجوز كان هنالك مجال بين «عبد المحسن» و«أمل» لتبادل التعليقات على هذا الموقف الطريف .

* * *

الفصل الثالث

كانت تراقب ابنتها «منار» وهي تخرج من البيت، وتصعد الحافلة باتجاه مدرسة رياض الأطفال، وتتابعها بنظرات حانية، وادعة، وتردد بصوت عذب:

- آه.. ما أجملها من طفلة!

إنها أعظم هبة!

وأجمل هدية!

وأحلى بنت في الوجود!

الحمد لله - الحمد لك يا إلهي!

أما الطفلة فكانت تقفز في سيرها، وتتراقص على الرغم من برودة جو ذلك اليوم.

وحين صعدت إلى الحافلة، جلست فوراً على الكرسي المحاذي للنافذة المواجهة للمنزل، ولوَّحت بيدها الصغيرة الرقيقة، مودعة أمها.. كانت تلصق وجهها إلى زجاج النافذة بصورة تجعله يبدو كرسم كاريكاتوري عابث.

ومع ذلك بدت في صورتها الطريفة في غاية اللطف

والجمال . . . أليست ابنتها . . . حسبها ذلك؟!

وحينما ذهبت الحافلة، دخلت المنزل، وأغلقت الباب، ثم أوصدته بالمزلاج الداخلي، وراحت عند ذلك ترتب من وضع المائدة، وتنظف ما علق بسطحها من أثر الطعام.

كانت تترنم ببيت من الشعر يقول:

أيقنت حين أتاني بكر أولادي بأن ميلاده قد صار ميلادي

حقاً كان مولد «منایر» مناسبة غالية على نفسها، جعلها تحب ذلك الشعر، الذي يصور عاطفة الأمومة الحانية، كانت تردد بصوت خفيض هذا البيت، الذي قرأته ذات مرة في أحد كتب الأدب.

وفي أثناء ذلك رنَّ جرس الباب، فتركت عملها، واتجهت إليه لتفتحه، وعلى عتبة الباب كان هناك رجل البريد يحمل طرداً متوسط الحجم، أخذته منه، وتركته على الطاولة، وراحت لتفصل التيار الكهربائي عن المكنسة الكهربائية التي يعلو ضجيجها.

وحين فتحت الطرد البريدي، هالها أن تجد فيه رطباً لذيذاً شهياً، وتذكرت أن زوجها قد أرسل في طلب هذا الرطب، حين علم بتوافره في إحدى الولايات في أمريكا.

ما أجمل أن ترى في هذه الغربة ثمر الشجرة الطيبة . . إن فيه طعم بلادها ، وطنها الحبيب إلى النفس !

وتناولت إحدى تلك الرطب ، وراحت تستمتع بمذاقها الطيب ، وبعد أن تناولت بضع حبات منه أدركت أنها إن لم ترفعه عنها ؛ فإنها سوف تأكله كله عن زوجها !

قالت في نفسها :

- لن تكتمل الجلسة إلا إذا أعددت القهوة العربية .

واتجهت إلى المطبخ لتعد القهوة ، لقد أحضرت من «الرياض» (الدلة) ، وعدداً من الفناجيل ، وبعض القهوة والهيل ، كانت تريد أن تعد لزوجها «عبد المحسن» مفاجأة مدهشة ، فمنذ ثلاثة أشهر لم يتح لهما أن يستمتعا بشرب القهوة . . . إنها ولا شك سوف تكون مناسبة سعيدة حقاً .

عاد «عبد المحسن» إلى منزله ، وذهب من فوره إلى غرفة الملابس ، وفيما كان يغير ملابسه ، أقبلت زوجته نحوه ، وحينما وصلت إليه قالت :

- أنت طلبت رطباً . . ؟

نظر إليها بدهشة وقال :

- نعم ! هل وصل؟

- أجل . . (ثم أردفت) . . جاء صاحب البريد بطرد فيه قرابة الخمسة كيلوغرامات من الرطب .

أحضرت الطرد البريدي وفتحته بشكل سريع وهي تقول :

- مثل رطب (السلّج) عندنا .

- عجيب! وصل بهذه السرعة . . كنت طلبته من أربعة أيام فقط ! !

- المهم أنه وصل بسلامة الله ، وقد أعددت له قهوة تكمل الجلسة .

أقبل يلتهم الرطب اللذيذ ، ويشرب عليه فناجيل القهوة ، ويدندن بأبيات شهيرة عنها ، هذه القهوة العربية يحس بها جزءاً أصيلاً من بيئته التي يحنُّ شوقاً إليها .

قالت «أمل» :

- ما دمت مرتاحاً إلى هذا الحد . . سأزيدك فرحاً بخبر يسرك . . ! !

- ماذا؟

- لقد اتصل أخوك سعد . . كنت بالجامعة . . وهو يسلم عليك .

قاطعها قائلاً:

- عليك وعليه السلام.. (ثم أضاف) ما أخبار الأهل؟

- طيبون ويسلمون عليك.. والدتك خرجت من المستشفى أمس.

- الحمد لله.. أنا علمت بهذا.. أمس اتصلت على المستشفى فقالوا: إنها خرجت.

- أختك «بدرية» امتحنت أعمال الفصل، وهي تريد إخبارك أنها بانتظار هدية منك.

- طيّب يا «بدرية».. غالي والطلب رخيص.. (ثم أردف): وماذا بعد؟

- أخوك «سعد» كان يريد إخبارك أيضاً أن «وليد» ابن خالتك «نورة» قد ابتعث إلى أمريكا.. لقد ابتعث للدراسة هنا..

كان «عبد المحسن» يسمع حديث زوجته وهو يتناول الرطب، ويشرب القهوة بنَهم، لكنه ما إن سمع بقدوم ابن خالته «وليد» حتى ترك ما بيده، وصوَّب نحوها نظرة تحمل علامة استفهام كبرى.

- هل أنت متأكدة؟

- من ماذا؟

- من أن «وليد» ابن خالتي سوف يحضر إلى هنا؟؟؟

- نعم، كنت أظنك ستبتهج، لقد أخذ عنوانك من الأهل وسيأتي إلى هنا.

قال لها برنة أسى:

- يا بنت الحلال.. هذا شاب تعبان.. ضايع.. ومجيئه إلى «أمريكا» سوف... (توقف برهة) ثم قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.. إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.. ولكن مشكلتي ليست في حضوره، فهو سيحضر ولا ريب.

- ماذا تقصد؟

- إنَّ المشكلة سوف تكون بعد حضوره.

- لماذا أنت قلق بهذا الشكل؟

- إني مشفق عليه!!

- هل سيعيش معنا؟؟! إنَّه سيعيش في منزله، وذنبه على جنبه.

- لكنني لا أحب له أن يتمادى في انحرافه.. أنا لن

أرضى أن أراه على شر وأسكت، وهو لن يرضى بتدخلي في حياته، تلك هي المشكلة؟؟

كان واضحاً ما أصاب «عبد المحسن» من القلق، فشعرت أن عليها أن تخفف عنه بعض ما يجد، قالت له:

- دعك من ذلك كله.. سوف تكون أنت إن شاء الله نموذجاً رائعاً يقتدى بك ﴿**ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء**﴾.

أحس أن كلامها فيه واقعية وصدق.. لا عليه إذن، فليأت «وليد» وليكن بعد ذلك ما يكون.

* * *

الفصل الرابع

أسرع «وليد» إلى غرفته، وأغلق عليه الباب، وبدا يشد بانفعال ظاهر على جيب قميصه.. وأخرج تذكرة الطائرة.

لمعت عيناه بوميض ابتسامة.. كان فرحاً مبتهجاً، ولم لا يفرح؟ وغداً سوف يطير على متن السحاب إلى «أمريكا»، هذا اليوم الذي طال انتظاره له.. سوف يستطيع أن يفعل أيَّ شيء.. أيَّ شيء.. أوه!! كم هي ممتعة تلك الخيالات التي جالت في ذهنه!! لقد حدَّثه أصدقاؤه عما سيجد هناك.. كان يقلِّب بين يديه إعلانات سياحية.. كان يقرؤها كلمة كلمة، بل حرفاً حرفاً، ثم مدّ يده إلى استمارة بلون أخضر مليئة بالتوقيعات.. وأخذ يطالعها فوجدها تعيده إلى ذلك اليوم الذي قدَّم فيه أوراقه للابتعاث.. كان مرتبكاً.. قلقاً.. يتمنى أن يغمض عينيه ثم يفتحهما فيجد نفسه هناك في «أمريكا». قال له عضو اللجنة التي تتولى المقابلة الشخصية للمتقدمين:

- ما البلد الذي تود السفر إليه؟

أجاب بسرعة:

- أمريكا.

- ما التخصص؟

قال بعفوية:

- أمريكا!

حدَّق إليه السائل، وقال بلهجة فيها الكثير من الاستغراب:

- نعم؟؟

ونظر إليه أعضاء اللجنة بكل اندهاش، لم يكن خافياً أن كلمة «أمريكا» قد انطلقت بصورة لا شُعورية.

التفت عضو اللجنة إلى العضوين الآخرين، ونظر إليهما وهو يبتسم ابتسامة ذات معنى جعلت «وليد» يرتبك، ويعرف أن عليه أن يضبط نفسه أكثر، فراح يضيف بلهجة متعثرة:

- التخصص.. علاقات عامة.. إدارة وعلاقات عامة.

وحسم الأمر رئيس اللجنة، فإذا به يقول:

- ما دمت راغباً في الذهاب إلى هذه الدرجة فنرى أنَّه.. لا.. ثم ترك الكتابة.. ونظر في وجه محدثه برهة،

ثم عاد مواصلاً الكتابة . . لا مانع من ابتعاث المذكور . .

كانت مزحة ثقيلة عليه، لكنه (بلعها) مرغماً :

ومدَّ إليه رئيس اللجنة بالاستمارة بعد أن ذيلها بتوقيعه فاختطفها منه، ومضى مسرعاً يكمل ما يستطيع إكماله من إجراءات السفر .

كان يمضي في تذكر ما لقيه الأسبوع الماضي . . لكن طرقات على الباب قطعت عليه حبل أفكاره . . وخرج من الغرفة وعلى محياه ابتسامة المودع، شعر نحو أهله بشعور غريب، يحس به أول مرة، نظر إليه أخوه وقال له :

- ظنناك لا تريد الطعام .

لم يُعلِّق بكلمة، وإنما سار إلى المكان الذي وضع فيه الغداء .

- أما زلت مصمما على السفر؟

ألم تغير رأيك؟

ألقت أمه ذلك السؤال الذي يمثل آخر سهم في كنانتها، وفيه أكثر من عتاب ورجاء، نظر بحنان بالغ إلى أمه وقال لها :

- الله يرضى عليك يا أمي !! هل سنعـــود إلى هذا

الموضوع مرة أخرى؟

تدخل أخوه موجهاً الحديث إلى أمه :

- خلاص . . قص التذكرة . . الله يسهل علينا وعليه .

- رأى «وليد» ألا يثير موضوع السفر مرة ثانية ؛ خشية أن تعدل أمه عن رأيها ، فترفض فكرة سفره من جديد ، وهو الذي تعب حتى نال منها الموافقة .

قال لها :

- ترى ما عندنا تغيير كلام . . . !! أنت موافقة ! والمؤمن عند وعده .

- لكن يا ولدي لو قلت لك موافقة بلساني ، فإن قلبي لا يوافقني ، لماذا أكذب؟؟ هذا هو شعوري . . ما زلت حتى هذه اللحظة أرجو أن تبقى معنا!!!

وبحركة تمثيلية قام وقبَّل رأس والدته ، وهو يطلب منها ألا تعيد الحديث في هذا الموضوع لأن السفر - على حد رأيه - حاصل حاصل .

وأقبل بعد ذلك إلى الطعام بسرعة ، وهو يشعر أن تناول الطعام واجب من الواجبات ، ومع أنه لا يجد له مذاقاً إلا أن حضوره مع الأسرة شيء لا يمكن التأخر عنه .

وبصورة عفوية كانت الأم تقص قصة أحد أقاربها الذي أكمل دراسته في «المملكة» ولم يضطر إلى الغربة والبعد عن الأهل.

كان «وليد» يزدرد الطعام، وهو يحس بالتوجيه غير المباشر الذي تلفت أمه نظره إليه، وابتسم ابتسامة ذات معنى، ونهض مرة أخرى ليقبِّل رأس والدته التي أدركت ما يعنيه ذلك، فإذا بها تغير الموضوع، وحين فرغ من الطعام دفع أخاه بمرفقه وقال له:

- إن شاء الله ما نسيت الذي وصيتك عليه.

- يعني.. ويعني

- كيف؟؟ يعني ويعني؟

- يعني بعضها نعم، وبعضها لا. ثم أردف:

- قاموس عربي انجليزي، وانجليزي عربي اشتريتهما لك، أما الآلة المترجمة، فقد أحضرت لك أفضل نوع وجدته في السوق. ومع ذلك فأظنها لا ترضيك تماماً.

- هل بحثت جيداً عن أحسن الماركات الموجودة؟

- نعم.. أكثر مما تصور. يخيل لي أن هذه الآلة مهمة جداً، وبخاصة للذي معرفته باللغة الإنجليزية ضعيفة جداً مثل بعض الناس.

حدجه بنظراته وقال :

- من تقصد؟

- اللبيب بالإشارة يفهم !

- أنت دائما تمزح .

- لا . . !! أنا متأكد أن مستوى لغتك الحالي يؤهلك لدخول مدارس محو الأمية في أمريكا ، ولذلك فقضية الآلة المترجم هي قضية مصيرية بالنسبة لك !!

- لكن «أمريكا» ما فيها محو أمية؟

ثم نهض قبل أن يسمع رد أخيه إلى المغسلة ، فيما كان أخوه يقول :

- إذا لم يكن فيها مدارس محو أمية فسيفتحون فصول محو أمية من أجل سواد عينيك!

وفي طريقه إلى الغرفة ، وقفت والدته معترضة طريقه ، ومدَّت إليه بسجادة صلاة وقالت له :

- خذ . . هذه سجادة صلاة ، إن فيها بوصلة لتحديد القبلة . . ستحتاجها ولا شك .

أخذها من والدته ، ولثم يدها ، وأكبَّ يقبلها ، بينما كانت تغالب موجة من البكاء التي عصفت بها ، ولم يبدُ

منها إلا صوت نشيج متقطع تحاول الأم جهدها أن تخفيه، وأنَّى لها ذلك؟ كان منظر وداعه لأهله منظراً مؤثراً، لم يكن يعتقد أنه يحبُّ أهله كل هذا الحب، ولم يدر أنه مهم بالنسبة إليهم كلَّ هذه الأهمية، محبوب بهذا القدر، إنها لحظات الوداع التي تكشف عن عاطفة جياشة مؤثرة.

وانتزعه من ذلك الموقف صوت أخيه وهو يقول له:

- أخشى أن تتأخر.. يجب علينا الذهاب الآن.

وخرج من بين أسرته، يشيعه كل واحد بكلمات عذبه حانية، ومن بين تلك الأصوات كان صوت أمه الندي الرقيق، وهي تودعه بكلمات متقطعة، صوت متميز.. لا يمكن أن ينساه.

وبسرعه حسم الموقف، وأسرع الخطا، فإذا به خارج المنزل يستقل السيارة متجهاً إلى حيث تبدأ رحلة تستمر عدة ساعات، كان يحمل همّ بقائه في الطائرة طيلة ذلك الوقت، لكنه بعد أن ركب الطائرة إذا بهذه الساعات تمضي أسرع مما يتصور، ربما لأن السفر الطويل المتواصل تجربة جديدة عليه، ولكل جديد لذة.

* * *

الفصل الخامس

حين أعطته والدته عنوان ابن خالته «عبد المحسن» أخذ العنوان منها تطييبا لخاطرها، وجعله في جيب قميصه، وقد أسرَّ أمراً بينه وبين نفسه، لقد صمم على ألا يتصل بأي إنسان يعرفه، لأنه يدرك أن ذلك سيحرجه، ويحول بينه وبين تحقيق ما يتمناه.

ومع أن رقم هاتف «عبد المحسن» كان معه في القائمة التي اشتملت على عناوين مهمة؛ إلا أنه لم يكلف نفسه عناء الاتصال به، وآثر ألا يكون أحد باستقباله، فهو سيواجه الموقف وحده، حتى إذا ما ضاق به الأمر، أو وقع في مشكلة لا يستطيع الخروج منها؛ فسيطلب مساعدة ابن خالته.

وذهب أول وصوله إلى فندق متوسط، ثم انتقل منه إلى «بنسيون» أرخص في الأجرة، كان كلُّ ما يسعى إليه أن يظل مستغنياً عن مساعدة أحد.

تذكر ما قالته أمه له، وهي تلح عليه أن يأخذ عنوان «عبد المحسن» ورقم هاتفه كانت تضعه بنفسها في جيب

قميصه، وفي لهجة إشفاق ورجاء . . قالت له :

- دع العنوان معك . إن احتجت إليه كان بها، وإلا فلن يثقل عليك حمله .

وشعر أن قولها عين الحقيقة، وأنها تتكلم بأمر منطقي جداً، فهي بحكم تجربتها الطويلة تدرك أكثر منه بكثير في مجال حقائق الحياة والتعامل مع الناس .

إنه يشعر أنها مازالت تراه صغيراً مهما كبر . . . لا تستطيع أن تتصوره غنياً عن آرائها وتوجيهاتها، وكان أكثر ما يؤلمه من حديثها أنها تصور له «عبد المحسن» النموذج الأمثل حتى أصبح يغار منه، ويملَّ الحديث عنه .

كان واضحاً أنها لا تريد له أن يعرِّض نفسه لمخاطر الغربة في بلد ناء بعيد، تطأه قدماه أول مرة .

أما هو فقد رضي أن يقبل الحد الأدنى في كل احتياجاته، المهم ألا يطلب معونة من أحد، وبخاصة من «عبد المحسن» الذي سيعيد عليه صورة الرقيب؛ فيكون بمنزلة من فرَّ منه إليه .

مضت بضعة أيام رتَّب فيها بعض أموره . وأسعده جداً أن أموره تمضي على نحو مفرح، إحساس النشوة والنشاط كان

يدفعه للتحرك في كل اتجاه، تارة يمضي إلى الأسواق، وتارة أخرى إلى مناطق الترفيه، وأحياناً إلى منطقة الكلية الجامعية التي يتبعها.

وفي أحد أيام الأسبوع الأول لوصوله، كان جرس الباب يقرع، وكانت مفاجأة مذهلة حقاً، فحين فتح الباب وجد نفسه أمام ابن خالته «عبد المحسن»!

نعم ها هو ذا أمامه وجهاً لوجه، وهو الذي فعل كل شيء حتى يهرب منه.

اندفع نحوه في ترحيب مصطنع في البداية، لكنه سرعان ما تحركت نفسه لهذا القريب الذي جاءه، وتلاشى إلى حد كبير التصنع الذي أبداه بفعل حرارة استقبال «عبد المحسن» له، لأول مرة يشعر أنه يحب «عبد المحسن» شعر به حبيباً إلى قلبه، وأن ظروف السفر والغربة كافية لتؤلف كثيراً بين القلوب المتنافرة.

رحب به، ودعاه إلى الدخول، ودخل «عبد المحسن»، كان معه صديقه «أبو راشد»، كان الرجلان متفقين في كثير من مظهريهما، وكان موطن تعجب «وليد» أنه لم يكن يتوقع أن يكون منظر الرجل الملتحي بهذا الانسجام التام مع اللباس الأجنبي.

سبقهما إلى الدخول، وأهوى على الطاولة يجمع ما عليها من مجلات وبعض النشرات السياحية، كان واضحاً أنه لا يريد أن يريا شيئاً منها، وأدرك الضيفان ذلك، فإذا بهما يتوقفان برهة، وحين تأكدا أنه قد نظف الطاولة مما كان عليها دلفا إلى الداخل.

سارع «وليد» إلى ثلاجة صغيرة في زاوية الصالة، وأخرج منها ثلاث علب كوكاكولا، ووضعها مع ثلاثة أكواب فوق الطاولة.

قال «عبد المحسن»:

- الحمد لله على سلامتك.

- الله يسلمك، ويبارك فيك.

- لقد اتصل بي أهلي... والمهم جاء ذكرك في المكالمة، وأخبروني بوصولك وعنوانك... الحقيقة كنت أطمع في مكالمة منك حتى أكون في استقبالك... وأقوم ببعض الواجب، ولكن حصل خير.

- نعم حصل خير... أردت أن أرتب أموري أولاً، وما أحببت أن أتصل عليك وأنا أعرف ظروفك الدراسية والعائلية.

- أنت تعرف أن الغريب للغريب نسيب .

- قال «وليد» وهو يضحك ضحكة خفيفة :

- نعم . . . ولكننا لسنا غرباء .

- ردَّ «عبد المحسن» : هذا صحيح ولكنك ترى أن الغربة تجعل الغريب نسيباً للغريب ، فإذا كان بينهما صلة وقرابة فلابد أن تكون أوثق ، وآكد .

تدخل الضيف بقوله :

- إن الغربة تصنع العجب ، فمنذ تعرفت بك يا «عبد المحسن» وأنا أشعر أنني أعرفك منذ زمن بعيد ، هل أقول إنها من حسنات الغربة؟

- هذا إذا كان لها حسنات؟!

عقَّب «وليد» :

- كل أمور الحياة فيها حسنات يجب أن نستفيد منها ، وسيئات علينا أن نحذر منها .

كان واضحاً أن جو الرسمية والتكلف يهيمن على هذه اللقاء ، على الأقل من جانب «وليد» الذي لم يكن حضورهما سبباً مفرحاً له .

مضى الثلاثة يشربون المشروب الغازي، وفي أثناء ذلك وضع «عبد المحسن» العلبة المعدنية على الطاولة وهو يقول:

- الواجب أن تكون ضيفنا... بل ضيفي أنا خاصة، لا أن نكون نحن ضيوفك.

ردَّ «وليد» مجاملاً:

- وهل تسمِّي ما قدمته لكما ضيافة؟ ثم إنه ليس بيننا رسميات.

- أعرف.. لكنَّ الأصول أن تشرِّف منزلي (ثم أردف): أكيد أيضاً أنك بحاجة للتعرف أكثر على هذه المدينة.

كان واضحاً أن «وليداً» يريد التخلص منهما.

ونظر «عبد المحسن» إلى «وليد» وقال:

- مهما كانت الظروف فإنني أعتبر من حقي عليك أن تقبل دعوتي.. وإلا..

- وإلا ماذا؟!

- سأخبر خالتي «نورة» في أول اتصال أنك تتكبر على ابن خالتك.

- لا يا شيخ... الله يهديك، بل زيارتك لي، أو

زيارتي لك من أسعد الأوقات .

- ليكن إذن في مساء الغد .

- خلاص . موافق مع الشكر .

- سوف آتي لأصحبك معي للمنزل .

- يسعدني هذا . . .

وعلى عتبة الباب وقف الثلاثة برهة فيما حانت من «عبد المحسن» التفاته إلى إحدى جهات الشقة قال بلهجة مؤدبة :

- نسيت أن أخبرك أن القبلة من هذه الجهة من أجل الصلاة، ثم عقَّب على ذلك :

- أكيد أنك صليت لغير القبلة . . . كلنا وقعنا في هذه المشكلة في البداية .

حاول «وليد» أن يكون مهذباً وبخاصة أنه في اللحظات الأخيرة لهذا اللقاء فقال :

- ضروري . . . نعم ضروري معرفة اتجاه القبلة .

تدخل «أبو راشد» بقوله :

- الله يعفو ويسامح .

ثم ودع «وليد» الرجلين ووقف على باب منزله حتى

توارت سيارتهما ودخل منزله وهو يقول :

- . . . إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون .

كان شعوره بالغربة والوحشة يدفعه إلى قبول دعوة ابن خالته مع أنه يحس أنه يحول بينه وبين ما تشتهيه نفسه من رغبات آثمة .

شعر أنه محرج بهذه الزيارة ، وأن عليه أن يحتال للاعتذار عن هذه الدعوة ، وقبل أن يمضي في هواجسه تذكر أنه قد أعطى الضيفين موعداً ، وهذا يعني أن يقطع نهائياً فكرة التخلص من هذا الارتباط الذي بدا مرَّ المذاق ، كما لم يكن عليه أي موعد سابق .

* * *

الفصل السادس

كان عليه أن يتنازل عن حقه الطبيعي في الغضب، وأن يضبط أعصابه بكل ما يملك من قدرة، لأن أي تصرف منه سيستثمره «د. بهاء حنَّا». ومضى «عبد المحسن» يتميز من الغيظ فيما كان «بهاء حنا» يكيل التهم، ويسخر من الشريعة الإسلامية، ويشوه الحقائق إلى درجة تثير الاشمئزاز، ومع أنه كان من المسيحيين، إلاَّ أن كونه عربياً أعطاه قدراً من المصداقية التي تجعل حديثه مقبولاً لدى الحاضرين.

كان «عبد المحسن» يدعو بينه وبين نفسه أن تمضي هذه المحاضرة على خير. إن أسوأ ما في الدراسة في الخارج أن تجد ما يصدم العقيدة ويناقضها، ويغدو وضع عدد من الطلاب، إما الضعف والتهاوي؛ نتيجة عدم الوعي بهذه الظروف والتسلح بزاد كاف من العقيدة، أو التحدي الذي يجعل بعضهم يتمسك بدينه أكثر فأكثر، ويعرف فضل الله عليه حين جعله من المسلمين.

وانتهى «د. بهاء حنَّا» من محاضرته عن (الجريمة والعقاب لدى المسلمين)، ولبث برهة يرتب أوراقه ثم

وضعها في حقيبته، وفي طريق الخروج التفت إلى «عبد المحسن» باسماً وقال:

- أظن المحاضرة لم تعجبك؟!

- بكل التأكيد.

- عليك ألا تنتظر مني أن أتحدث بما تحب فقط!

- وأنت عليك ألا تنتظر مني أن أوافق على مغالطاتك وتشويهك للحقائق

وأردف «عبد المحسن»:

- سوف أطلب من إدارة الكلية إتاحة الفرصة لتوضيح الحقائق التي طمستها في محاضرتك.

- هذا يرجع إليك وإليهم.

ومضى «د. بهاء حنَّا» إلى الخارج فيما بادر «عبد المحسن» إلى قسم إدارة العلاقات الثقافية بالكلية، وأوضح للمسؤول هناك ضرورة أن تكون هنالك محاضرة في الموضوع نفسه يلقيها أحد المسلمين.

وفوجئ أن طلبه قد قوبل بكثير من الترحيب، وبخاصة حين أكد أن «د. بهاء حنَّا» ليس مسلماً، وحديثه التهجمي عن الإسلام والبلاد الإسلامية يمثل نظرة للموضوع من

زاوية واحدة، وأبسط الحقوق الأدبية أن تتاح الفرصة لإيضاح وجهة النظر الأخرى .

بعد ثلاثة أيام رن جرس الهاتف، كان المتكلم هو «د. بهاء حنا»، بدا الرجل في غاية الرقة والعذوبة، إنه يفتعل تلك اللطافة افتعالاً، وإلا فقد كان هو نفسه سبباً في التضييق على كثير من الطلبة العرب الذين رفضوا البحث معه في الموضوعات الأثيرة لديه، التي لا تزيد عن مجموعة من الشبهات يحاول إيقاظها كل حين، وإيقاد نار الفرقة التي كلما خبت زادها لهيباً، ومن خلالها فقط ينظر إلى تاريخنا الإسلامي كله، لم تكن حقيقة «د. بهاء» مجهولة لديه .

كان حديث «د. بهاء حنَّا» ما زال يرن في سمعه وهو يؤكد أنه يُقدِّر وجهة نظره، وكانت لهجته ممزوجة بطابع الكبرياء الزائف وهو يقول: لقد سعيت من جانبي لقبول طلبك في إقامة محاضرة تصور وجهة نظرك، ولا أخفي عليك، أنني أتمنى أن تكون أنت المحاضر .

أدرك «عبد المحسن» أن «د. بهاء حنَّا» يحاول أن يجعل منه كبش فداء .

أدرك ذلك كله، وعرف أن الحماسة وحدها لا تكفي، وهنا وجد نفسه يخاطب «د. بهاء» قائلاً :

- ولكن أنت تعرف أن تخصصي هو في الكيمياء العضوية، ولست متخصصاً في العلوم الإسلامية (وسكت قليلاً، ثم عقَّب): اترك لي فرصة أسبوع، أتصل بأحد الدعاة ليحاضر بنفسه عن هذا الموضوع.

- لا بأس.

- في خلال أسبوع وربما أقل سوف أقدم اسم أحد المحاضرين الذين يجيدون الحديث عن القضية.

وهنا ودَّعه «د. بهاء» وأنهى الحديث، وشعر «عبد المحسن» أن عليه أن يسارع إلى الاتصال بزملائه في الجامعة، أو في الولاية القريبة علَّه يجد من يتحدث في القضية.

في البدء ظن أن الحصول على متحدث في الموضوع لن يكلفه الكثير من العناء، لكنه وجد نفسه في كل مرة يسير في طريق مسدود، فهذا منشغل بدراسته لا يستطيع الحضور، وآخر مسافر ولم يعد حتى الآن، وثالث ذهب بأسرته إلى ولاية أخرى، ورابع اعتذر بأنه يفتقد المراجع اللازمة، وخامس صحته لا تسمح له بإمكانية الحضور.

وهالته النتيجة التي انتهى إليها.. كانت الأيام تمضي، والموعد المحدد يقترب، ولم يستطع أن يرسل اسم المحاضر

المرشح للمحاضرة، وبدأ القلق يساوره في أن ينهزم أمام «د. بهاء حنَّا».

كان يجمع قبضة يده ويضرب بها على حافة الكرسي، (قال في نفسه): لا يصح أن أنهزم، لابدَّ مما ليس منهُ بدٌّ.. نعم لابدَّ مما ليس منه بدٌّ، ومضى من فوره إلى الهاتف، ورفع السماعة وطلب محادثة «د. بهاء».

قال له بلهجة فيها الكثير من القوة والثقة:

- «د. بهاء»! أرى من المناسب أن أتولى المحاضرة بنفسي، طالما أنا صاحب الاقتراح.

كان محدثه يتمنى له التوفيق، ومظاهر الارتياح تبدو من نبرة صوته، فهو مطمئن أنه لن يفلح في تقديم المحاضرة.

لم يكن لدى «د. بهاء» أدنى شك في أن «عبد المحسن» سيخفق في التصدي لهذه المهمة؛ لأنه غير متخصص، ولأنه غير معتاد على إلقاء المحاضرات، ولأنه في جو جديد عليه لا يألفه ولا يعرفه، وسيدفع ثمنا فادحاً لحماسته وغيرته.

شعر «د. بهاء» أن الفرصة قادمة ليشمت من «عبد المحسن» وأصبح ينتظر الموعد على أحرَّ من الجمر.

* * *

الفصل السابع

راحت «أمل» تتملَّى بكثير من الإعجاب الطبيعة الرائعة، والجو الربيعي الذي يكسو منطقة «بيترلاند»، وأحست أن الخضرة، والأشجار السامقة على طول الشارع تعطي الكثير من المتعة النفسية.

فالولاية تعيش فصل الربيع الخصب، الذي لم تكن تراه في بلادها، كان الوقت قبيل غروب الشمس بقليل، وكانت تنتظر خروج «عبد المحسن» وابنتها «منايز» من السوبر ماركت، فقد نسي شيئاً ما فآثر العودة إلى السوبر ماركت لإحضاره، وطلب أن تبقى بانتظاره في الخارج... قال لها:

- لا عليك سأعود بعد لحظات.

وها هي ذي اللحظات تمضي سريعاً وهو لم يحضر. خطر في ذهنها أن تغادر المكان، وسرعان ما ساورتها الشكوك في سبب تأخر زوجها، وعادت تنظر إلى الخضرة والأشجار السامقة، لكنها تنظر إليها الآن بنفسية مختلفة

تماماً، لم تعد ترى فيها جمالاً، كانت كلُّ دقيقة تمر في وقفتها هذه تعني مزيداً من القلق، وبدأت تشعر بالخوف من كل عابر يمر بالقرب منها . . لم تكن لها من الجرأة ما يجعلها تحدق النظر في كل قادم . . لأن ذلك وحده يعني مزيداً من المشكلات التي تحاول تجنبها .

وفيما هي واقفة كانت سيدة عجوز تقترب منها .

وما أن اقتربت منها حتى قالت لها :

- عليك ألا تقفي هنا يا سيدتي، لعلك لا تدركين خطورة ذلك عليك .

أحست « أمل» بأن هذه السيدة يمكن أن تقدم لها مساعدة، قالت لها :

- أنا بانتظار زوجي، لقد دخل السوبر ماركت قبل قليل وسيعود .

- إذا كنت مصرَّة على الوقوف . . اذهبي هناك . .

وأشارت إلى مكان يقف فيه شرطي . . . عظيم الجثة .

أشارت «أمل» بيدها محيية تلك العجوزة، ثم هرولت إلى حيث يقف ذلك الشرطي بملابسه الزرقاء المميزة . . لم يكن خافياً شعورها براحة نفسية أكثر وهي إلى جواره .

أقبل عليها الشرطي بوجهه وقال بأدب جم :

- هل أستطيع أن أقدم مساعدة ما .

- سماحك لي أن أقف بجوارك خير مساعدة .

ابتسم، ثم قال لها :

- لك ذلك .

أردفت :

- إنني أشعر بغير قليل من الراحة هنا .

- لم يعلق على كلامها بشيء غير ابتسامة متكلفة، ثم راح يمشي بضع خطوات حول المكان الذي كان يقف فيه .

في هذه اللحظات جاء «عبد المحسن» يحث خطاه نحوها، وما إن لمحته خارجا مع طفلتها «منايز» حتى سارت هي الأخرى باتجاهه .

قال لها قبل أن تصل إليه :

- آسف لم أقصد أن أتأخر، ولم يخف عليّ ما يسببه ذلك من إزعاج ؛ لكن (الطفلة) تشبثت ببعض المعروضات لكي أشتريها لها، وحينما حاولت أن آخذ منها تلك الأشياء كانت تصيح بطريقة مزعجة جداً .

نظرت الأم إلى طفلتها كانت الدموع ما زالت تسيل على وجنتيها .

قالت : لقد خفت كثيراً لم أتعود أن أقف وحدي .

ردَّ عليها : لكني لم أتأخر كثيراً .

- هذا على رأيك . . لكن الثواني في الانتظار في مثل ذلك الموقف كأنها ساعات كاملة ، ثم أردفت :

- لماذا أصررت هذه المرة على أن نتسوَّق من «الداون تاون»؟ لا أدري . . . ؟؟ لعلي كنت واهمة . . . لكنَّ الوجوه تنذر بالخطر .

- لك الحق في ذلك . . . لعلك تتعجبين أن معدل الجريمة في «الداون تاون» هو أعلى معدل من أي منطقة أخرى . . حتى الأمريكيون أنفسهم يخشون هذه المنطقة .

- الله يسامحك تعرف كل هذا وتحضرنا هنا .

- يا شيخة . . دعي عنك الخوف . . ها أنت لم يصبك شيء .

- الحمد لله (قالتها بلهجة فيها الكثير من العتاب) .

وما إن سار الثلاثة باتجاه السيارة القابعة في مواقف

السيارات حتى بدا أمامهم مشهد حي للسرقة. كان أحد اللصوص يشهر مسدسه على أحد المارة ويطلب منه أن يعطيه ما معه من نقود، والرجل يبادر من فوره إلى إفراغ ما في جيوبه في يد ذلك اللص، الذي ما إن تم له ذلك حتى هرول مسرعاً، وتوارى عن الأنظار بنفس السرعة التي جاء بها.

كانا يحمدان الله أن اللص لم يفطن لهما. وما إن ذهب حتى هرولا سريعاً باتجاه سيارتهما.

عجباً للخوف لقد تصلبت أقدامهما حين كانا يريان الحادث، وها هو ذا الخوف نفسه يدفعهما الآن بسرعة إلى مكان سيارتهما.

وفتح «عبد المحسن» باب السيارة، ثم ركبت إلى جانبه وهي تسحب بيدها طفلتها، وفيما كان يدير مفتاح القيادة كانت سكين حادة تقترب من عنقه، ويد تمسك بتلك السكين، ووجه قذر مخيف يطل على الثلاثة من جهة باب السائق.

حاولت «أمل» أن تصرخ، لكن اللص أشار إليها بأن تسكت، سكتت المسكينة، ووضعت يدها على فم ابنتها لكي تسكت هي الأخرى.

قال اللص بلهجة صارمة حادة :

- هات النقود

فراح الزوج يفتش في جيوبه ولكنه لم يجد شيئاً .

هل سيصدق هذا المجرم أنه ليس معه نقود؟ ولكن تلك هي الحقيقة .

قال له بلهجة ضارعة :

- ليس معي شيء . . لقد اشتريت بكل ما معي من السوبر ماركت .

أشار المجرم إلى الزوجة . . .

راحت «أمل» تفتش في ملابسها ، فلم تجد معها شيئاً هي الأخرى ، وقبل أن تخبره بذلك كانت يدها تلامس ورقة نقدية في قاع حقيبتها اليدوية ، أخرجت هذه الورقة النقدية بكثير من الابتهاج ، رأت فيها مخرجاً من هذه الورطة . . كانت من فئة الخمسين دولار مدتها له فاختطفها بسرعة منها . وضرب بشدة على جسم السيارة وهو يقول بصوت خشن .

- اذهب .

لم يصدق «عبد المحسن» أنه سلم مع أسرته، فسارع بالفرار من هذا المكان.

وبقي (الزوجان) طوال الطريق صامتين. كان يعلم أنها سوف تلقي باللوم عليه، لأنه هو سبب وجودهما في هذا المكان الخطر.

وقطعت السيارة أكثر الطريق فأراد أن يبدد جو السكون فقال وهو يلتفت التفاتة سريعة إلى زوجته:

- أتعرفين... أظن الواحد لابد أن يُبقي معه نقوداً لمثل هؤلاء اللصوص، فهم لن يصدقوا أنه ليس معه نقود (ثم أضاف).

- هل تعرفين أننا نشبه المكسيكيين؟

- وماذا في ذلك؟

- أكثر المكسيكيين ظروفهم المالية قاسية جداً، مما يدفعهم للجريمة، ولذا فهم مخيفون إلى حدٍّ كبير.

رغب أن تشاركه الحديث لكن «أمل» لزمت الصمت.

أعاد «عبد المحسن» المحاولة مرة ثانية. قال لها:

- خلاص... لن نحضر لمثل هذه الأمكنة أبداً.

فردَّت باقتضاب :

- نشوف ! !

- هذا وعدٌ منِّي .

- نشوف !

- سوف ترين ما يسرك إن شاء الله ، الحمد لله جاءت سليمة .

كانت السيارة تسير ، بينما كانت «أمل» تشعر أن الخوف لم يبرح نفسها . ظلت قسمات وجه ذلك اللص أمام ناظريها ، وسكينه الحادة التي وضع طرفها على عنق زوجها . . وإشارته بأصبعه ألا تصرخ . كل تلك المشاهد لم تبرح مخيلتها ، وشعرت أن قدميها ترتعشان ، وكذلك أصابع يديها التي تمسك بها طفلتها . لم يكن يخفى ذلك على زوجها ، لكنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً ما لإزالة تلك المخاوف ، وبخاصة بعد حدوث ذلك ببرهة من الزمن ، لكنه كان مصمماً على أن يعمل شيئاً ما .

- فقال : ما رأيك أن نذهب إلى المنزل على جناح السرعة ؟

قالت باقتضاب :

- على كيفك . ما عندي مانع . المهم ننسى ما حصل .

بعثت إجابتها شعوراً من التفاؤل . قال لها :

- سوف ترين إن شاء الله .

لكنها قالت فجأة :

- دعنا نذهب إلى الحديقة العامة .

- هذا يدل على أنك لا زلت متوترة ، وإلا فالحدائق غير مناسبة بالليل كما تعرفين .

- صدقت . ما زلت متوترة بعض الشيء .

- لابأس عليك .

- المهم تزول صورة ذلك المتوحش عن مخيلتي .

- يا شيخة . . ! ! الحمد لله على السلامة ، ما دفع الله كان أعظم .

- الحمد لله .

- أتعرفين؟؟ بدون الأمن كل هذه المنجزات لا تساوي شيئاً .

- هذا أكيد .

ثم توقف برهة وقال :

- نسيت أن أخبرك أنني ربما أتولى إلقاء المحاضرة التي أخبرتك عنها .

- ألم تجد أحداً يلقيها بدلاً عنك .

- ألم تسمعي بقول الشاعر؟ :

وما أكثر الإخوان حين تعدهم!! ولكنهم في النائبات قليل!!

- أنت تُصعِّب المسألة على نفسك .

- كيف؟

- ببساطة اعمل موازنة بين الأمن في بلادنا بسبب إقامة الحدود والأمن عندهم، فيكون عندك أحسن محاضرة (ثم أردفت) : دع عنك جانباً القضايا النظرية، والأدلة التي تحتاج إلى بحث طويل ومراجع ومصادر، وركز على قصص واقعية، وستجد نفسك محاضراً من الطراز الأول .

قال مبتسماً :

- من الطراز الأول . كذا مرة واحدة!!

- ولم لا؟؟ على الأقل فالحوادث الواقعية أكثر تأثيراً في الناس، وهذا يكفي .

ثم أضافت : في يوم واحد سوف تجمع من أفواه زملائك عدداً كبيراً من الحوادث وتنسقها بترتيب معين وسوف تكون النتيجة مفرحة .

- نعم مفرحة لي ومحزنة إن شاء الله لـ«د . بهاء» . . ثم أردف :

-هل تعرفين أن التحدي هو الذي يحيل الإنسان إلى كائن نشط حيوي؟

لقد دخلت معه في تحد .

- ستفوز بإذن الله .

- أتعرفين؟؟ المأزق الذي نجونا منه اليوم بشارة خير أن أنجح من المأزق الذي يحاول وضعي فيه «بهاء» . ثم أردف بلهجة مازحة :

- سأجعله يهرب من أمامي كما نهرب الآن من «الداون تاون» .

- قالت في رجاء : إلا «الداون تاون» لا تذكر اسمه لي فهي المرة الأخيرة إن شاء الله التي نأتي فيها إلى هذا المكان الموحش المرعب .

* * *

الفصل الثامن

شعر بغير قليل من الرهبة، وهو يجتاز الردهة الخلفية لقاعة المحاضرات، تلك الردهة التي تصل بين الباب الجانبي للقاعة والمنصة الرئيسة، التي سوف يلقي من عليها محاضرته، وحتى تلك اللحظة كان يغشى قلبه تردد في أن يعود من حيث أتى، لكنه استعاذ بالله من الشيطان الرجيم، ومضى متظاهراً بالقوة، وسرعان ما تحول ذلك من مجرد تظاهر وادعاء إلى شعور حقيقي في نفسه، فإذا بها تهدأ، ويعود إيقاع ضربات قلبه إلى إيقاعها العادي، ويزول عنه خجله.

وحين وقف «عبد المحسن» أمام الحضور شمل الحاضرين بنظرة رزينة هادئة، ثم قال بهدوء بعد أن حيَّا الموجودين:

- لن أتحدث لكم - أيها الحضور الكرام - عن جانب تاريخي؛ لأني أعرف أنكم تحبون أن تعيشوا الواقع، والواقع فقط، وترفضوا الخروج منه لتذكر الماضي.

ولن أجعل حديثي عن المسلمين حين كانوا خير أمة، مع

أن تاريخنا جزء أصيل في كيان كل مسلم.

ولن أتحدث لكم عن المستقبل مع أن هنالك شعوراً يقينياً لدى كل مسلم أنَّ المستقبل لهذا الدين.

لن أتحدث عن ذلك كله، لا لأنه غير مهم، ولكن لأن ضربات الواقع العنيف على نفس الإنسان المعاصر تجعله لا يفكر إلا في لحظته التي يعيشها.

ومن هنا اسمحوا لي أن أحدثكم عن شيء معاصر لا سبيل إلى إنكاره.

سأحدثكم عن جانب الأمن في بلادي، وهو جانب واحد من جوانب الخير إذا ما التزم المسلمون بدينهم.

اسألوا كل المؤتمرات الدولية عن مستوى الأمن الذي يشبه الحلم.

حينما طرق عليَّ أحد الناس باب منزلي في هذه الولاية، كان ذلك قبيل منتصف الليل بقليل، فتحت له الباب كان ثمة خطأ ما، دفعه إلى أن يطرق باب المنزل. في صباح ذلك اليوم حدَّثت بعض زملائي بالخبر فذهلوا؛ لأنهم اعتبروا مجرد فتح الباب للطارق في مثل ذلك الوقت مجازفة بحياتي.

ماذا لو قلت لكم: يعيش الناس في بلادي آمنون، وأن الشعور بالأمن يجعل المرء يقدم على كثير من التساهل في حمل النقود مثلاً مهما كانت كثيرة دون أن يصيبه في ذلك خطر.

ومضى يذكر مشاهد واقعية لأمن واستقرار نادرين، حتى إن المستمعين شعروا بكثير من الدهشة والانبهار. كانت المحاضرة جديدة عليهم، وكان ما يسمعونه يمثل حلماً صعب التحقيق.

سكت برهة ثم قال: عفواً لأني غريب عن هذا المجتمع ربما كانت قدرتي على ملاحظة بعض الأمور التي يعتادها المقيم، أكثر، بل هذا هو شأن السيِّاح أيضاً الذين لا يحجبهم الاعتياد على الشيء عن معرفة نقاط مثيرة فيه. ولذا فإني وأكثر القادمين إلى أمريكا من البلاد النامية. نرى هنا خطراً يتجلى في تضخيم الذات، والدفاع عنها حتى وإن كانت مجرمة آثمة. ولذا يظفر المجرم عندكم بأحكام قانونية لا تردعه عن الجريمة، فترتفع نسبة من يتكرر سجنهم بسبب وضع الشفقة في غير موضعها.

أما عندنا..!! فإن المسلم يؤمن أن الله هو الخالق،

وأن هذا القرآن من عنده عز وجل، وهو تعالى أعلم بعباده، وما يصلح عليه حياتهم، ولذا فالحل الطبيعي هو تنفيذ أمر الله تعالى، فإذا تعارضت مصلحة الأمة مع مصلحة الفرد وجب تقديم مصلحة الأمة.

في الإسلام إذا علم السارق أن يده ستقطع فلن يسرق، وبذا يسلم المال العام والخاص، وتسلم يد السارق هو الآخر، ثم إن قطع اليد لا يتم إلا بعد استيفاء شروط قاسية، تجعل من إقامة الحدِّ في التاريخ الإسلامي كله حالات معدودة جداً... طيلة عدة قرون.

ولكم أن توازنوا بين ما قلت وبين القانون هنا الذي يؤدي إلى مسلسل لا ينتهي، من الجرائم البشعة التي يكون فيها قطع مئات، بل ألوف الأيدي والأرجل، وزهق الأنفس، وكان من الممكن، والممكن جداً أن يسلم أولئك المجني عليهم.

كذلك لا يمكن أن يقتل أحدٌ، لسبب بسيط جداً وهو أن القتيل معصوم الدم، وليس من حق أحد أيًّا كان أن يريق دمه، وبذا يبقى دم الإنسان معصوماً لا يراق.

وإن من تحدثه نفسه بالقتل سيعلم أنه سيعاقب بالقتل،

ولذا يكفُّ عن القتل فتسلم روحه أيضاً.

وهناك في بلادنا لا تكاد توجد جرائم جماعية، أو منظمة كما هو الشأن في بلادكم أنتم.

حدثوني عن عقوبة الإعدام، لقد أقمتم الدنيا وأقعدتموها ضد هذه العقوبة، ومع ذلك فأنتم تكابرون ثم تتنازلون وترون أنكم مضطرون إلى تنفيذها، حينما يتعلق الأمر بسفاح مثلاً قتل عدداً من الأبرياء الضعفاء، وحينئذ يحكم عليه الرأي العام قبل القضاء بالقتل.

إن كل إنسان يعيش مهدداً في جو مشحون بالخوف فإنه يكلف أعصابه الكثير والكثير من المهدئات الطبية، ويكلف الكثير الكثير من المال أيضاً للحماية والحراسة والتأمين، ولو سارت الأمور سيرها الطبيعي لما كان إليها حاجة.

أخيراً يا سادتي... ليس المهم هو العقاب بحد ذاته، لكن المهم أيضاً هو ألا تتوفر الأسباب الداعية إلى وجود الجريمة.

الجريمة سببها الظلم، والإسلام يمنع الظلم منعاً باتاً.

الجريمة سببها الإغواء، والإسلام يمنع كل سبل الإغواء، بل يمنع وجودها أصلاً.

هل أعطيكم مثالاً . . . ؟؟ هذه المرة أيضاً في بلدكم أنتم، فقد اعتدى أحد الأشخاص على عرض فتاة كانت تسير معه، وحين مثل أمام القضاء قال لهم :

- إنها هي السبب .

سأله القاضي :

- كيف؟

قال له :

- إنَّها هي التي دعتني إلى الاعتداء عليها .

ووجمت الفتاة، ووجم الحاضرون لحظات أمام هذا الافتراء!!

قال لهم :

- لا . . . . لا تعجبوا لقد كنت سائراً في طريقي لم يخطر في بالي قط أن أتعرض لهذه الفتاة أو غيرها، فجأة . . . وجدت نفسي أمامها مباشرة، كل شيء يثيرني كرجل قد فعلته، لتلفت الانتباه إليها، لتغري بالنظر إليها، ولتحرِّض على ما هو أكثر من النظر إليها؟؟

أنا وسواي من الرجال ما ذنبنا؟ إنَّها هي شريكة أساسية في هذه الواقعة، لماذا أقول شريكة؟

إنها هي البادئة في نصب الشَّرك لي ولأمثالي، لقد قصرت ملابسها بشكل لا تستطيع أن تحول نظرك عن منظرها المثير. هل أنا أجبرتها أن تفعل ذلك؟

إنها هي وحدها تتحدى في نفسي مشاعر الرجولة وتستثير غريزتي. وبالفعل حصل لها ما تريد واستثارت غرائزي، فكان ما كان. فهل أنا الملوم وحدي؟

هل تؤيد عدالة المحكمة أن أكون أنا المجرم بينما المحرض على الجريمة الداعي إليها، البادي في أسبابها، المحبب بها، يكون بمنجاة عن اللوم والعقاب؟

نعم..!! إن لها كل الحق في أن تتمتع بحريتها الشخصية كما تريد في بيتها، ولكن بشرط ألا يصيبني الأذى من تلك الحرية التي ليست حكراً عليها وحدها.

وهال المحكمة هذا السيل المتدفق من الحجج الموضوعية التي لا سبيل إلى إنكارها.

وتلفت القاضي يمنة ويسرة يبحث عن قشة تنقذ قانون المحكمة من الغرق أمام واقعة بدا فيها القانون أعزلَ أمام سلاح الحقيقة الماضي.

ووجد القاضي نفسه يتجاوز أقصى الصلاحيات

الممنوحة له ليبقى على ماء وجه مواد القانون .

فإذا به ينطق بالحكم ببراءة المتهم ، وهو حكم يصدر لأول مـــرة في تاريخ تلك الولاية ، بل ربما في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية كلها .

ولذا لم يستطع الناس تقبل ذلك الحكم ، فإذا بهذا الحادث يصبح من أبرز قضايا المجتمع الساخنة ، وتعاد محاكمة الجاني مرة أخرى ، ويصدر الحكم عليه مرة أخرى بالسجن والغرامة ويدفع به إلي الزنزانة ، فيما يظل الفاعل الأصلي والمحرض على الفعل طليقاً ينصب الشراك لآخرين يبدو الواحد منهم معتدياً بينما هو في الحقيقة مظلوم مجني عليه .

وتوقف عن الحديث . . وبدا يقرأ في عيون الحاضرين مزيجاً من الحيرة والدهشة والعناد .

قال لهم : في ظل الإسلام لا يحدث ذلك أبداً .

لأن أسباب هذه الجريمة لا يسمح لها بالوجود .

فالمرأة لا يصح لها أن تبدي زينتها وجمالها إلا لمن يستحق أن يرى ذلك وهو زوجها ، أو لأناس لا ينظرون إليها النظرة الجنسية كأبيها ، وإخوتها الذين لا يصح زواجها

بهم. وبذا يظل نداء الفطرة طبيعياً صافياً معقولاً بعيداً عن الإثارة والتهويل.

إن هذه التجربة الحقيقية الرائعة تقول بصدق وبدون زيف: إن على الذين يعنيهم أمر المرأة وتهمهم سلامتها، وسلامة المجتمع؛ أن يرفضوا كل أشكال الإغواء والفتنة والإثارة التي تتلبس بها المرأة سواء في الحياة العامة، أو في وسائل الدعاية والإعلام المختلفة التي تتعامل مع المرأة بوصفها جسداً فقط.

وفيما أعلم، فإن ثمة أصوات عاقلة متزنة - هنا - تضع أصابعها على الجرح وتدعو لمعالجته، ومع ذلك فإن الضجيج المضاد ما زال يحول دون الإصغاء إليها والإنصات لما تقول.

وبعد: فاسمحوا لي أن أعود بكم مرة أخرى إلى الحديث عن موضوع السرقة، لأني أعتقد أنه مهم هو الآخر بشكل يدعو إلى أن يأخذ نصيباً أكبر من هذه المحاضرة.

حينما جئت هنا كانت أبرز وصية تلقيتها من أصدقاء أمريكيين أن أتعامل في مشترياتي كلها بالبطاقة... لأن إبراز أي قدر من النقود سوف يجعل من صاحبه هدفاً

للسرقة ولما هو أشد من السرقة.

هل تصدقون أن الرجل في بلادي يخرج من البنك رزمة النقود ظاهرة لا يخفيها عن أحد، ويذهب بها إلى حيث يشاء آمناً مطمئناً؟

ليتكم رأيتم أسواق الذهب عندنا وهي تعرض هذا المعدن الثمين في إطار من البساطة واليسر جعلت أحد الخبراء الأمريكيين يصرخ في مرافقه ويقول: هذا المشهد يلغي كل دور للمحاضرات التي جئت لإلقائها في حماية المتاجر من السرقة.

دعوني أقل ما لم يحدث في الأحلام عندكم: الساعة هي الثانية بعد منتصف الليل والناس مازالوا يجلسون على أرصفة معدة في الشوارع السريعة في مدينة جدة والرياض وغيرهما من مدن المملكة في مثل تلك الساعة المتأخرة من الليل، لا يجد أولئك حرجاً من الجلوس في الخلاء يستمتعون بهواء الصحراء الليلي العذب، ويقضون ساعات في الجلوس الآمن الوادع، فإذا ما انفض السامر عاد كل واحد إلى منزله سليماً معافى لا يخشى إلا الله تعالى.

هل من الممكن أن نرى مثل هذه الصورة في أمريكا؟ لا أظن أنها توجد في أذهانكم إلا في الأحلام، وفي الأحلام فقط، فالليل هنا يعني: الرعب، والوحشة، والجريمة.

وأخيراً... سادتي!!، أقرّ وأعترف أنني جئت إليكم متعلماً، طالب معرفة، ولكن هذا لا يمنع أن تستمعوا لي، لأن ما أقوله ليس من حصيلة فكري أو نتاج فكر أمتي.

بل هو من ذلك الذي خلق الإنسان فهو سبحانه وتعالى أعلم به.

وهي رسالة كان على محمد ص أن يحملها للناس فحملها، وكان أميناً في نقلها، وأصبح نقلها بعد ذلك أمانة في عنق كل مسلم، في أي موقع، وفي أي مكان.

وفي الختام إنني لا أجد التعبير المناسب الذي يفي بحق شكركم على تكريمي بإلقاء هذه المحاضرة وتشريفكم لي بالحضور، فشكراً جزيلاً لكم ودمتم بخير وسعادة وأمان.

ودوَّى التصفيق في أجواء القاعة. كان هنالك اثنان يراهنان على عدم فوزه: ابن خالته «وليد» الذي كان مجيئه مجاملة فقط، و«د. بهاء حنَّا» الذي أسقط في يده فانسل من الحضور فور انتهاء المحاضرة. حدث هذا في الوقت

الذي أحاط بـ «عبد المحسن» عشرات من الحضور، بعضهم يستبين جوانب من المحاضرة، وآخرون يسألونه أن يعدهم بمحاضرة أخرى عن هذا الموضوع، وهو يجيب بلباقة ولطف.

ووسط ذلك الجو الغامر نسى كل مشاعر التوجس والحذر، وبدا طعم الانتصار حلو المذاق، فأحس بنشوة الظفر تسري في جسمه، فقد كان استماع الحاضرين، واستمتاعهم بالمحاضرة مفاجأة غير متوقعة لم يكن يعلم أنه قادر على كسب هذا الرصيد من النجاح الذي تحقق له هذا اليوم.

* * *

الفصل التاسع

بمرور الوقت خفَّت إلى حد كبير وحشة «وليد» من «عبد المحسن» الذي كان يبذل كل سبيل لمساعدة ابن خالته وإكرامه. وكان شعوره بالنفور منه يقل في نفسه كلما تذكر اللطف البالغ الذي يعامل به، فيعود يسأل نفسه

- من أنا حتى أستحق كل هذه الحفاوة والإكرام؟

كان من الممكن أن يُعرض «عبد المحسن» عن خدمته معتذراً بكثرة أعماله، وارتباطاته الأسرية وما أكثرها!!

ولكنه لم يفعل، وبينما كان يفكر في شهامة ابن خالته ومروءته، إذا به يتصل عليه، ويخبره بأنهما مدعوان لزيارة مطرب الجاز الأمريكي الشهير «تومي».

كانت مفاجأة غير متوقعة جعلته يخاطب «عبد المحسن»:

- «تومي» نفسه؟

- نعم «تومي» نفسه بشحمه ولحمه.

- ألست أنت الذي تكتم نفسي حينما ترفض أن تسمع الأغاني؟ واليوم تدعوني إلى «تومي» المطرب الشهير..

أكيد في المسألة شيء؟؟

- نعم . . . !! وستعرف ذلك عند وصولنا إليه .

وذهب الاثنان إلى منزل المطرب الشهير، وحين رآه «وليد» لم يشك لحظة أنه هو، فقد حفظ صورته جيداً من كثرة رؤيته له في الأشرطة والمجلات .

لكن المفاجأة الكبرى التي هزَّته كثيراً حين علم أن «تومي» قد أسلم، وغيَّر اسمه إلى «عبد الكريم» وهجر إلى غير رجعة عالم الغناء والملاهي .

حين عاد «وليد» من زيارة «عبد الكريم» كانت خواطر شتى تتنازع في ذهنه، أحس أن زيارته تلك حدث مهم، بدا له أنها نقطة تحول في حياته .

ياإلهي هل هذا معقول؟؟ «تومي» يدعوني إلى الالتزام بالإسلام، مع أنني أولى منه بذلك، إنه يذكر كيف بدت الحضارة زائفة، حضارة تتجه إلى الحضيض بعيداً عن هدي الله تعالى .

قال له «عبد الكريم» :

- إن أخطر شيء يواجهكم أيها القادمون إلينا أن تغتروا بمظاهر المدنية المتقدمة، إنني أدعوك إلى أن تحصن نفسك .

قال له «وليد» :

- ممن؟؟

- من صدمة الترف المادي الذي ترانا عليه .

- لست أفهم .

- دعني أشرح لك : في القرآن الكريم يقول الله تعالى : **﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾** إنها تفسر واقع الحضارة المعاصرة، لهو وتمتع، ثم ماذا؟

إنك لا تجد هنا أحداً يلتقط أنفاسه اللاهثة ليجيب على هذا السؤال!

ثم ماذا؟

ألا يفكر الإنسان فيمن خلقه؟

ألا يفكر أنه قد خلق في تركيب عجيب مدهش لا مجال للمتأمل إلا أن ينقاد لخالقه ويستسلم؟

ألا يفكر في هذا الكون المذهل الذي هيء بأحسن صورة لحياة الإنسان . . .

أترى كيف ارتجفت أوصال العلماء المعاصرين وهم يكتشفون ثقباً بسيطاً في طبقة الأوزون؟ فينذرون أقوامه

بقرب تغييرات مؤلمة على الحياة في الأرض إن لم يتم تفادي هذا الأمر الخطير.

هل هم الذين وضعوا طبقة الأوزون التي بقيت تحمي الأرض ملايين السنين؟ أم أنهم هم الذين أحدثوا ذلك الثقب؟ هذا مثال بسيط تماماً لهذا البعد عن الله تعالى، بل إنك تذهل وأنت تتابع المحاولات التي تقوم بها الدول لتفادي أضرار هذا الثقب، فلا تجد ذكراً لله تعالى، ولا رجوعاً إليه، ولا استسلاماً لقوته تعالى وسلطانه.

ثم مضى «عبد الكريم» في حديثه الشجي:

- ألا تسألني كيف أسلمت؟

لم ينتظر إجابة «وليد» فواصل حديثه قائلاً:

- لقد كنت في فترة من الفترات في أوج شهرتي وعنفوان مجدي الفني.

كان لدي كل ما أريد تقريباً.

لكنني كنت أعيش في داخلي صراعاً مع فكرة الموت... كانت كلمة الموت وحدها كفيلة أن تفسد عليَّ يومي كله، كنت أتساءل: لماذا أموت؟ وكنت أصرخ في داخلي: لا أريد أن أموت!

أأترك كل هذا العز والجاه؟

وإلى أين سأمضي؟ لست أدري!

حين توفيت أمي، بكيت عليها كثيراً، لا أنسى أنني وقفت ملياً أتأمل وجهها، وقد اتسعت حدقة عينيها، وبقي فمها مفتوحاً، وهي تجهد نفسها لتقول كلمة وداع.

ما زال منظرها في خيالي، صعقت وأنا أتأمل وجهها بعد أن فارقت الدنيا، ظللت وأنا الشخص القوي البدن ضعيفاً فاتر العزيمة.

كنت أتردد على طبيب نفسي لكنه لم يستطع أن يصنع لي شيئاً، كان معي رفيق رحلتي الفنية «هارولد» كان مثلي وافر القوة والنشاط، ذات مساء اتصل بي قال لي: إنني أشعر بإرهاق.. لا أستطيع أن أحيي معك سهرة الليلة.

أخذت الأمر مأخذاً سهلاً فطلبت إلى أحد الموسيقيين أن ينوب عنه. في ظهر اليوم التالي اتصلت به في منزله، ردت عليَّ الخادمة، لم تستطع أن تتفوه بكلمة حينما سألتها عنه أجهشت بالبكاء، أعدت السؤال فبكت أكثر، وضعتُ سماعة الهاتف جانباً، وقدت سيارتي بسرعة جنونية حتى وصلت إلى منزله، طرقت الباب فإذا بالخادمة تخرج لي

وتقول بصوت متشنج : لقد مات «هارولد» . . توفي ضحى هذا اليوم الساعة التاسعة . ستأتي زوجته إلى «دنفر» لاستلام جثته وإكمال مراسم الدفن .

هل وعيت كل كلمة قالتها لي؟ لا أظن . . . فقط عرفت أن «هارولد» قد مات ، وهذا وحده كاف ، أخذت عنوان المستشفى وهرولت لأراه ، لأرى رفيق حياتي منذ كنا صبية صغاراً في زقاق مدينة «فينيكس» من ولاية «أريزونا» إحدى ولايات الجنوب ، إلى أن انتقلنا مع أسرتينا إلى الولايات الشمالية لنتنسم خلالها بعض عبير الراحة النفسية ، وتقل ضغوط التمييز العنصري في موطننا الأصلي .

وحين رأيته مسجى على السرير راعني منظره ، كشفت الرداء عن وجهه ، أخذتني قشعريرة وأنا أحدق فيه ، خُيِّل إليَّ من شدة التحديق أنني أرى الصورة نفسها التي كانت عليها أمي ، العينان المتسعتا الحدقتين ، والفم المفتوح . أهذا هو نهاية المطاف يا «هارولد» .

فجأة . . . تذهب عني وتتركني؟؟

ترى هل سيأتي عليَّ الدور لأكون بهذه الصورة المرعبة؟ لأبقى جامداً كالحجر لا ألتفت إلى أحد ، ولا أجيب سؤال

أحد؟ أين الحيوية والنشاط وضحكاتك الصارخة التي تزلزل الغرفة؟ كنت على النقيض مني تماماً، لا ترهب الموت، ولا تعتد باليوم الذي يقدم فيه عليك، كنت تدعوني إلى ألا أذكر الموت على لساني عندما أكون معك. . . ها أنت تراه عين اليقين.

ومضت مدة بعد وفاة «هارولد» لم أجد في نفسي النشاط والحيوية لإحياء سهرات العزف في الملاهي.

كنت آخذ سيارتي لأخرج إلى خارج المدينة، شعرت بحب جارف للطبيعة، كنت أمضي إلى غربي «دنفر» أستمتع بمنظر «جبال روكي» هذه السلسلة العظيمة من الجبال، وتارة أمضي إلى جنوب «دنفر» حيث أبقى وقتاً ليس بالقليل على شاطىء نهر «البرت»، أحسُّ أنني أمام الطبيعة وجهاً لوجه وأجد نفسي أتساءل: هل خالقنا خلقنا هكذا وتركنا وشأننا؟ إننا بحاجة إلى دليل نقطع به هذه البحار المظلمة لهذه الحياة. . هل هناك من دليل؟ . . . وأين هو؟ هل لي الحق أن أعمل ما أشاء؟ وكيف؟ هل أنا حرّ تماماً؟ كانت أسئلتي من النوع الضخم الذي لا تستطيع كتب اللاهوت المسيحية أن تجيبني عليه، لم أكن قادراً على أن أقبل بسهولة فكرة أن

أعترف بأخطائي للقسيس ليغفرها لي . . . إنه رجل مثلي تماماً، بل لديه من الأخطاء ما لا يقل عن أخطائي، إنني أعرف بعضهم حق المعرفة هذا القسيس . . . من هو؟؟ حتى تصبح الجنة رهن إشارة منه يمنحها من يشاء ويحجبها عمَّن يشاء؟!!

ظللت في حيرة شديدة، كاد رأسي ينفجر من التفكير، فأهرع إلى تناول حبوب «الفاليوم» المهدئة، لكن الهدوء الذي تمنحه المهدئات أشبه ما يكون بجزيرة صغيرة في وسط المحيط سرعان ما تبتلعها الأمواج. وظل الأمر كذلك حتى كان ذلك اليوم الذي قرأت فيه خبراً عن مركز إسلامي بولاية «ألينوي» كان الخبر يتضمن تعريفاً بالمركز، والنشاط الذي يقدم فيه، مازلت أذكر أن من أبرز ما استثار فضولي في ذلك الخبر أن المركز يقوم بتوزيع كتب في التعريف بالإسلام وأنها ترسل بالمجان لمن يطلبها.

تركت الصحيفة جانباً، وقمت من فوري أطلب أن يرسل إليَّ المركز ببعض تلك الكتب، ونقلت العنوان من الصحيفة إلى المظروف البريدي، ثم أرسلت الرسالة إلى عنوان المركز.

بعد أسبوع تقريباً وصلتني ثلاثة كتب صغيرة الحجم بلغة انكليزية راقية إنني لن أنسىَ أبداً تلك الكتب التي بدأت فيها رحلة الإيمان.

وشعر «عبد الكريم» أنهما يتلهفان لمعرفة أسماء تلك الكتب، فقال:

لقد كان أحدها كتاب: (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لـ «أبي الحسن الندوي»، والآخر كتاب: (مبادىء الإسلام) لـ«أبي الأعلى المودودي»، وثالثها كتاب (الإنجيل أم القرآن كلمة الله؟) لـ«أحمد ديدات». وقرأت تلك الكتب، أحسست أنها تجيب على تساؤلات محيرة لي، كان كل كتاب منها يزيل كابوساً ثقيل الوطأة على روحي ونفسي، كنت كالغريق، وكان الإسلام طوق النجاة لي.

كان بي شوق للمعرفة، أرسلت أطلب كتباً أخرى، اعتذر المركز أن الموجود لديه للتوزيع في هذا الوقت؛ هي هذه الكتب فقط، وأشار إلى أن أبواب مكتبة المركز ستكون مفتوحة للرواد، وبخاصة في أيام العطلة الأسبوعية، وحين جاءت نهاية عطلة الأسبوع كنت قد عقدت العزم على الذهاب للمركز، وقطعت تذكرة السفر إلى «ألينوي»

وبالذات إلى المدينة التي تم فيها افتتاح ذلك المركز، وفي مكتبة المركز كنت أبحث عن شيء واحد هو القرآن، لقد أغرتني الكتب التي قرأتها بأن أقرأ القرآن.

وعدت من ذلك المركز ومعي نسخة من القرآن مرفقاً به ترجمة لمعانيه باللغة الإنجليزية، أحسست أنني وأنا أحمل القرآن قد حصلت على كنز لا يقدر بثمن، كانت كل أوقات راحتي أخصصها لقراءة ترجمة القرآن، وبعد مضي أسبوعين فقط، كنت هناك أتلفظ بالشهادة وأعلن دخولي في الدين الإسلامي.

لن أنسى أبداً ذلك اليوم.. إنَّه يوم مولدي!!

كان حديث «عبد الكريم» شجياً صافياً، وكانت العبرة تجيش في صدره وهو ينطق العبارة الأخيرة: إنَّه يوم مولدي.

كان «وليد» واجماً لا يدري ما يقول، فقد كان حديث «عبد الكريم» وهو يحكي رحلته من الكفر إلى الإسلام مؤثراً بالغ التأثير في نفسه.

وأحس الضيفان أنهما أثقلا على صاحب البيت فتقدم «عبد المحسن» وهو يقول:

- جزاك الله خيراً.

أجابه برقة بالغة:

- وأنت كذلك.

مدَّ «وليد» يده مودعاً.

فأمسكها صاحب البيت وقال له بلهجة رجاء:

- أرجوك!! أنت مختلف عنهم.. أنت مختلف!! إنك تحمل هذا الدين، إياك أن تفرط فيه، آباؤك هم صحابة رسول اللهص الذين تركوا ديارهم ونشروا هذا الدين.

أضاف:

- صدقني..!! إن حاجتنا إلى ما عندك من العلم بالدين أشد من حاجتك إلى ما عندنا من أدوات الحضارة المادية..؛ لأن هذه الدنيا مجرد فترة ضئيلة ستمر على الجميع بخير أو شر، لكن الحياة بمعناها الحقيقي هناك في دار الخلود.

وفيما كان الثلاثة يخطون باتجاه باب المنزل توقف «عبد الكريم» وهو يقول:

- لقد نسيت واجب الضيافة.

- لن تخرجا إلا إذا أخذت منكما وعداً بزيارة قادمة، نتناول فيها العشاء، في منزلي. . . إنني آسف. . . المفروض أن أستمع فقط، وألا أستأثر بالحديث دونكما. .

لقد كانت زيارته «لعبد الكريم» مؤثرة في حياته.

ياإلهي. . هل هذا معقول؟

هل يعود إلى الله على يد هذا الفنان الأمريكي، وهو الذي كان يعرض عن سماع محاضرات العلماء في بلده.

هل يعيد اكتشاف دينه ويعرف عظمته وجلاله هنا في أمريكا؟ التي كل ما فيها يصد عن ذكر الله؟

لقد أثاره «عبد الكريم» عندما كان يتحدث عن تلك الكتب الثلاثة حديث المستمتع حقاً بقراءتها المدرك لفائدتها. وأحرجه تماماً حين قال له: لعلك لاحظت يا «وليد» أن كتاب (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) يمثل بارقة أمل تخرج من ثنايا ذلك الكتاب لتهش في وجه المستقبل القادم.

ماذا لو علم أنني لم أفتح كتابا من تلك الكتب؟!

* * *

الفصل العاشر

مضت أشهر ثمانية منذ سكن الزوجان العربيان وابنتهما في منزل السيدة العجوز، وعلى الرغم من مرور تلك الأشهر إلا أن «أمل» لم تنس ذلك اليوم من أيام إقامتها الأولى في هذا البيت، كان عليها أن تصعد فيه لتوقظ السيدة صاحبة المنزل. . . لقد طلبت منها أن توقظها في الساعة العاشرة، لأنها تريد الذهاب إلى المصرف لتسديد بعض الإلتزامات المالية عليها. كانت تقول لها : يا ابنتي إن شهر «نيسان» من الأشهر العصيبة داخل كل بيت أمريكي، فالخامس عشر منه موعد دفع الضرائب.

وصعدت إلى الطابق الثاني الذي تقيم فيه العجوز. . . ذلك الطابق الذي يخيّم عليه السكون، بصورة موحشة، ويسكن جنباته هدوء مزعج للنفس.

لشد ما تكره أن تصعد إليها وبخاصة أنها وحدها في المنزل. . . إنها تخاف. . . وإن كانت تحاول ألا تظهر لها مخاوفها. لا زالت تذكر إحدى المرات التي صعدت فيه إلى مسكن «مسز بودي»، ورأت العجوز بصورة مخيفة

مروعة، كانت تترنح وتقف ثم تسقط، كان شعرها منفوشاً مخيفاً، وكانت عيناها تحدقان بكل شيء، وبلا شيء. . . وهي تغمغم بكلمات غير مفهومة. . . كان وضع العجوز غير طبيعي أبداً، وعرفت «أمل» السبب حين رأت الزجاجة الموضوعة على الطاولة الصغيرة، أمام الكرسي الهزاز الذي تقضي عليه غالب وقتها.

كانت تلك الحادثة في أيامها الأولى في هذا المسكن. . . إنها لم تستطع أن تنسى ذلك المنظر الذي لم يفارق خيالها كلما رأت فيه صاحبة البيت، لقد كانت محرجة جداً حين طلبت منها أمس أن توقظها، ومع ذلك لم يكن هنالك مفر من الموافقة على طلبها.

واليوم. . وحين أزف الموعد المحدد، كانت «أمل» تصعد إليها سلم المنزل، كانت تحس بغير قليل من الوحشة. . لكنها عزمت الأمر، وتوكلت على الله، وصعدت إلى الطابق الثاني حيث تسكن العجوز. . نظرت فلم تجدها في الصالة.

وشملت المكان بنظرة عجلى، ولأنها كانت خائفة فقد كانت على استعداد للنزول الفوري عن هذا الطابق.

الموحش . . لكنها تذكرت وعدها ، فآثرت أن تلتزم به مهما نالها في سبيل ذلك . . قطعت الصالة بخطوات وئيدة إلى غرفة نوم العجوز ، وطرقت الباب برفق بالغ ، وقالت بصوت هادئ :

- «مسز بودي» . . «مسز بودي» . . إنها العاشرة صباحاً . . عليك أن تنهضي من النوم .

ولم تسمع رداً . . فواصلت طرق الباب وهي تحدث نفسها أن العجوز ربما كانت قد سهرت البارحة ، فهي لا تستطيع القيام بسرعة من نومها .

وبينما هي عند باب غرفة نوم صاحبة المنزل ، تناهى إلى سمعها صوت بكاء ونحيب . . صوت متقطع من النشيج ، فأرهفت السمع . . إنه صوتها ! . . «مسز بودي» لا غير .

ما الذي يُبكي هذه العجوز الجامدة العواطف؟ ولماذا لم تكن في غرفة نومها؟ تُرى أتكون في الغرفة الأخرى التي تقع في آخر الطابق العلوي؟

واستجمعت شجاعتها ، ومضت إلى الغرفة التي يأتي منها صوت البكاء . . ووقفت لتطرق الباب ، لكنه لم يكن موصداً ، فما إن وضعت يدها عليه حتى وجدته ينفتح ،

وتبدو الغرفة أمام ناظريها . . العجوز تجثو على الأرض بجانب سرير يتوسط أرض الغرفة .

كانت تمسك بصورة فتاة بيدها ، وتسند رأسها إلى اليد الأخرى بجانب السرير ، وشعرت «أمل» أن العجوز لم تفطن لها فقالت بصوت هادئ رفيق :

- «مسز بودي»! . . صباح الخير . . أنا آسفة ، لم أكن أريد أن أعكر عليك صفو وحدتك . . جئت لإيقاظك فقط .

ورفعت صاحبة البيت عينين مخضلتين بالدموع ، وقالت بصوت متهدج :

- أشكرك أيتها السيدة الكريمة . . إنني لم أستطع النوم منذ البارحة .

كان هذا واضحاً في عينيها اللتين بدا أثر السهر فيهما . . وفي صوتها الواهن الحزين الذي يشف عن ألم وحسرة ، وشعرت الفتاة أن مهمتها قد انتهت ، فأرادت الانصراف ، وإن كان الفضول وحب الاستطلاع جعلاها تتمنى أن تطلب منها العجوز البقاء لديها ، علها تخبرها بجلية الأمر ، وكأنما أدركت صاحبة المنزل ذلك ، فأومأت إليها بالجلوس ،

فجلست إلى جوارها، ثم بادرتها قائلة :

- هل أستطيع أن أقدم لك مساعدة يا سيدتي؟

- انظري إلى هذه . .

ومدت إليها صورة فتاة جميلة في السابعة عشرة من عمرها، كانت الفتاة صاحبة الصورة تبتسم ابتسامة تبعث على الإعجاب، ربما هي تفعل ذلك من أجل التصوير فقط، وراحت «أمل» بطريقة لا شعورية توازن بينها وبين صاحبة الصورة، كانت تطيل النظر في شعر صاحبة الصورة، وطريقة تصفيفه، والمكياج الخفيف الذي لابد أن صاحبة الصورة قد استعملته لتبدو على هذا المظهر الجميل الفاتن . . .

وقطعت عليها العجوز أفكارها قائلة :

- إنها ابنتي «جين» . . منذ سنوات لم أرها . . لقد مضت بعيدة عني . . مع أنني كنت أقدم لها كل ما تريد . . لكنها لم تكن ترغب أن تقيم في المكان الذي أكون فيه . . لقد تخلت عني . . وتركتني وحدي . . حاولت أنا ووالدها - في حياته - أن نثنيها عن عزمها . . لكننا لم نستطع، ومنذ أن ذهبت وأنا في حزن شديد . . كانت في سنوات ذهابها

الأولى تكتب لي بطاقة في عيد ميلادي، وفي الأعياد الأخرى.. وكنت أشعر أنها لم تنسني، فأفرح لذلك، وتصبح تلك البطاقات بلسماً يخفف من ألمي وحزني - ولو إلى حين - لكنها منذ أربع سنوات لم تعد ترسل لي شيئاً.

غداً عيد ميلادها، وقد اعتدت أن أنظف لها غرفتها، وأبقى فيها الليل كله.. إنني أشعر أن البكاء يخفف عني كثيراً مما أجده من الحزن والقلق عليها.. آه!! ليتها تعود ولو ساعة من الزمن.. أنا أمها.. ليتها تعلم ما الذي تعنيه لي؟!

كانت تبكي بصوت متقطع وتقول:

- عودي يا «جين».. عودي من أجلي، ولو يوماً واحداً أراك فيه قبل أن أموت!!

كانت تفعل ذلك وهي ممسكة بصورة ابنتها في إطارها الذهبي الجميل، وكأنها تنظر إلى ابنتها «جين» حقيقة وليس إلى مجرد صورة فقط.

مضت عدة أشهر بعد ذلك الموقف، ومنذ ذلك اليوم نشأت خلالها علاقة حميمة بينها وبين صاحبة المنزل وزالت الكلفة، وساد جو من الاحترام والمودة، حتى غدا أمراً

طبيعياً أن تقدم لها «أمل» من الطعام الذي تطهوه لأسرتها. . وكم أشادت «مسيز بودي» بروعة المذاق المميز لأطباقها الشهية التي تطهوها «أمل» بكل عناية وتأن.

كما كانت هي وزوجها يمدان لها يد المساعدة عندما تتعرض لوعكة صحية، وما أكثر ما كان يحدث ذلك!! فكانت تجد في الزوجين الشابين حناناً ورحمة، أثّر كثيراً في نفسها وجعلها تحب مقامهمها في منزلها.

وقد فوجئ «عبد المحسن» حين قدم لها إيجار أحد الأشهر أن اقتطعت مبلغاً منه، وأعادته إليه قائلة :

- خذ هذا. . إنه مقابل وجبات الطعام التي تقدمونها إليّ. .

بهتته المفاجأة فقال :

- لكن هذا يعد هدية، إنه من باب التلطف وحسن الجوار. .

وحين رأى أنها لم تستوعب ما قال، مد يده بذلك المبلغ إليها وهو يقول :

- ليس من عادتنا أن نأخذ شيئاً لمثل هذا.

- كيف؟

- إنه بدون مقابل .

- لكنكم دفعتم في شرائه وطهيه نقوداً . . أليس كذلك؟

- نعم ولكننا نقدمه لك بالمجان .

- بالمجان؟!

- نعم .

- ولماذا؟

- هذه من تقاليدنا في إكرام الجار ، وبخاصة من هو في مثل سنك ، إنها هدية والهدية لا ترد .

قالت بكل ثقة :

- معنى هذا أن تقبل الهدية مني .

وقبل أن تنتظر منه رداً طوت المبلغ الذي أعاده لها ووضعته في يده وهي تقول :

- اقبل هذا هدية مني . . (ثم ابتسمت بثقة قائلة) :

- لا إخالك تستطيع أن ترد هديتي . . إنني متأكدة أن هذه الدفعة من الإيجار لا تساوي شيئاً بجانب ما قدمتما لي . .

واغرورقت عيناها بالدموع وهي ترنو إليه بنظرات

ضعيفة . . وبصوت متهدج قالت :

- إنكم تقدمون لي من اللطف ما لا عهد لي به .

خنقته العبرة هو الآخر ، لم يستطع أن ينبس ببنت شفة ، فقد شعر أن طيب معاملتهم لها كان له أبلغ الأثر في نفسها .

* * *

الفصل الحادي عشر

منذ أن عاد من لقاء إسلامي أقيم في «كاليفورنيا»، وهو فرح مسرور، يفيض قوة وحيوية، لقد رأى «عبد المحسن» هناك كيف تتعارف الأرواح فتتآلف، وكيف يتلاشى في تلك اللقاءات طعم الغربة المر المذاق، إنه يشعر بنشاط وتتفتح شهيته على العمل حين يجد أعواناً له على الخير. . حين يصحب مثل ذلك النفر الطيِّب. . يتفيأ معاني الأخوة التي تهفو النفوس إليها.

كان مشروع إنشاء مسجد يستولي على مشاعره، ويستحوذ على جل تفكيره، ولكن كيف يتحقق ذلك الحلم؟

تلك هي المشكلة.

إن عدم وجود المسجد فوّت على نفسه وعلى زملائه فرصة صلاة الجماعة، فلم تكن الظروف لتسمح بها دائماً، وربما حضرها مرة وتركها مرات، وأخرج قلمه وفتح أمامه كراساً صغيراً قلّب صفحاته حتى وجد ورقة بيضاء، فراح يسجل على مهل هذه الخواطر التي تشغله. كان يريد أن يحدد المشكلة بكلمة أو كلمتين ليركز على لب الموضوع،

إن كثيراً من الوقت يضيع من الإنسان لأنه لم يحدد المشكلة بالضبط.

ووضع خطاً، ثم أتبعه بثان وثالث تحت كلمة «مسجد»، وفتح صفحة ثانية حاول أن يستحضر مصادر التمويل لهذا المشروع، ثم بدأ يشطب على كل مصدر، وما لبث أن وجد نفسه يشطب على الصفحة كلها. لقد أخفق في أن يجد سبيلاً لإخراج مشروعه إلى النور. رجع إلى منزله مهموماً.. دخل المنزل وكانت زوجته تتهيأ للخروج.. كانت بانتظاره.. لكنه تجاهل الأمر.. اتجه إلى صالة الجلوس، وألقى بنفسه على إحدى الأرائك، تقدمت منه «أمل» قالت له في لطف بالغ:

- ما بك يا «عبد المحسن»؟

- لا شيء، أنا مرهق، (نظر إليها ثم قال):

- أنت تتهيأين للخروج؟

- نعم.. ولكني لن أكون وحدي.

- كيف؟

- أنت ستكون معي.

- أنا؟

- نعم.

- إلى أين؟

- أنسيت مناسبة جيراننا؟ (نظرت إليه باستغراب)، نهض وهو يقول:

- أوه.. لقد تذكرت الآن.. نعم.. نعم.. إنه يوم وليمة «أبي راشد».

قالت معقبة:

- هل ما زلت عند وعدك؟ أم أعتذر منهم.. إنني منذ نصف ساعة وأنا في انتظارك.

- لا.. بل سنذهب من فورنا.. ليس بيننا وبينه رسميات، يكفي أن يدعوني لأجيبه.. شعر بالنشاط والحيوية حين تذكر «أبا راشد» ضحك وقال:

- كل شيء إلا «أبا راشد» لا نستطيع أن نتأخر عنه أبداً.

هب واقفاً ثم اتجه إلى المغسلة فغسَّل وجهه. كان الماء بارداً فأحس بنشاط لذيذ جعله يعيد الكرة مرة أخرى، ثم مضى مع زوجته لتلبية تلك الدعوة، حين وصلا إلى منزل «أبي راشد».. اتجهت «أمل» إلى وسط المنزل حيث رفيقاتها.. بينما دخل «عبد المحسن» إلى حجرة الضيوف،

كان لقاءً أخوياً ذلك اللقاء الذي شعر به في منزل «أبي راشد». وحين عاد «عبد المحسن» وزوجته كان مشغول الفكر!

سألته:

- ليست عادتك يا «عبد المحسن»!

- ماذا؟

- عندما نعود من مثل هذه الزيارات تكون منشرح الصدر.. تتحدث طوال الطريق.. (ثم أردفت).. أمَّا اليوم؟؟ (وتوقفت برهة).

- أمَّا اليوم ما به؟

- أنت لست معي.. هنالك شيء يقلقك.

- أنا مشغول الفكر حقاً.. بضرورة إيجاد مكان نجتمع فيه، نصلي فيه، تقام فيه دروس، نجعله ملتقى لنا.. لقد ازددت اقتناعاً الآن أكثر من أي وقت مضى.. قلت لنفسي: لو كان لنا مكان نصلي فيه لأصبحت لقاءاتنا الطيبة أمراً معتاداً بدلاً من أن تظل مرتبطة بمناسبات لا تحدث إلا نادراً.. إذا بقينا هكذا سنذوب في هذا المجتمع.. سوف يجرفنا التيار.. ونضطر إلى أن نجاري هؤلاء في كل شيء،

لكننا لو كنا معاً فسوف نخفف آثار الغربة ووحشتها .

- لكنها موحشة عند بعضهم فقط وليست كذلك عند آخرين .

- هذا صحيح .

- أنت تصرخ في واد .

- يكفيني الآن أني ضامن تقريبا أربعة أو خمسة يحسُّون بما أحسّ به وهذا يكفي . . (وأضاف) :

- وبحسب ما أعرف ، فإن الآخرين لا يمانعون ، لكن المشكلة هي من يعلق الجرس؟؟

- ما دام أنه ليس هنالك خسارة فلمَ لا تبادر أنت؟

- أنا ليس عندي مانع . . ولكن كيف؟

- كل مشكلة ولها حلٌ .

- صدقت .

- **﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾** .

- صدق الله العظيم .

- تريد زيادة؟

- نعم.

- **﴿وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.**

- نعم.. لا إله إلا الله.. ﴿وقل اعملوا﴾. هذا هو الفيصل في الموضوع.. العمل.. العمل.

- إذن فلتعمل.. (وأردفت).. ابدأ بأيسر الأشياء.. كل البدايات كانت ضعيفة.. هذا الإنسان الذي يبدو أحياناً متجبراً متغطرساً كان في يوم من الأيام نطفة متناهية الصغر، ثم رضيعاً لا يجلب لنفسه نفعاً ولا يدفع عنها ضراً.. ثم كبر، بدأ يقف على قدميه.. ثم ما زال يكبر حتى بدا ذلك الإنسان القوي المقتدر.

- لكن القضية قضية إمكانات. (توقف لحظة ثم قال):

- هل أستدين لاستئجار موقع؟ لا يمكنني ذلك.. إن التضحية هنا أكبر مما أتحمله.

- هل أنت وحدك في هذا الهمّ؟

- لا.

- هل معك من يؤيد هذه الفكرة؟

- أكيد.

- أكيد؟

- نعم..

- إذن هي ليست مشكلتك وحدك؟

- ماذا تعنين؟

- أعني أن أصدقاءك المؤمنين معك بهذه الفكرة، سوف يدعمون مشروعك، أو على الأقل من الناحية النفسية يخفّفون عنك عبء التفكير بالحل..

- جزاك الله خيراً يا «أمل»..إن المشكلة ستخف كثيراً ولابد أن لديهم اقتراحات جدير أن أسمعها منهم.

وحين وصل إلى المنزل، قام من فوره وقد حدد أربعة أشخاص ممن يثق بتفاعلهم مع الفكرة.. أمسك بالهاتف واتصل بكل واحد منهم، كان أمر إقناعه بأهمية مسجد صغير قضية منتهية، ولذا طلب من كل واحد أن يحدد إجابته على سؤال واحد فقط وهو: ما الذي يمكننا عمله لنخرج ذلك المشروع من حيز الفكرة إلى التطبيق؟

أراد أحدهم أن يجيب، لكن «عبد المحسن» قال:

- لا.. أرجوك.. لا تتعجل الإجابة، دع القضية في ذهنك، وفي عطلة نهاية الأسبوع سوف أرحب بك ضيفاً

عزيزاً، تتناول معي فيه طعام العشاء وأرى ما لديك.

وبعضهم كاد يقطع الأمل فيقول: إننا لا نستطيع عمل شيء، فكان يرد عليه برفق: إنني واثق أننا نستطيع أن نعمل شيئاً ما، ولولا ذلك ما اتصلت بك.

وفي عطلة نهاية الأسبوع كان «عبد المحسن» يقف محيياً أصدقاءه الذين لبوا دعوته لتناول العشاء، ومناقشة مشروع بناء المسجد، وعلى خلاف ما كان يتوقعه تماماً، فقد بدا الأمل يلوح بتحقيق هذه الفكرة، وبخاصة حين اقترح أحدهم أن يذهب معه إلى أحد المحسنين الذين جاءوا إلى أمريكا للعلاج، قال لهم:

- إنني أعرفه جيداً، لا أظنه سيتأخر عندما يتحقق من الأمر، لقد كنت عنده قبل يومين، وقد خرج من عملية زراعة الكبد، والعملية ناجحة، وهو في مرحلة النقاهة الآن.. وأعرف أنه يحب الخير.

قال له «عبد المحسن»:

- ما دام يعرفك فستكون أجرأ الجميع على مفاتحته.

- لا أظن هذا هو المناسب.

- كيف؟

- أنت الذي تفاتحه في الأمر وتعرض عليه الطلب، وغالباً فإنه سيستشيرني. ترتيب الأمور بهذه الطريقة مُجد أكثر. لو كنت أنا صاحب الاقتراح سيستشير غيري، وربما لا يتحقق لنا كلُّ ما نريد.

ابتسم «عبد المحسن» وهو يقول:

- فكرة طيبة.

وانفضَّ الجمع بعد أن حدد الرجلان موعداً لمقابلة الضيف الذي يزور أمريكا.

وحين خرج الضيوف دخلت «أمل» إلى الصالة، كان أحسن ما رأته أن الضيوف قد أكلوا الطعام الذي قدم إليهم، فربة المنزل تشعر بكثير من الاعتزاز والفخر، فهذا يشهد لها بأنها طاهية ماهرة.. لقد فرحت حين وجدتهم قد استمتعوا بالطبخات العربية التي أبدعتها يدها... قالت:

- الحمد لله، مضى الأمر على خير.. أليس كذلك؟

قال لها وهو يساعدها في رفع بعض الأطباق:

- لقد بدأنا الخطوة الأولى لبناء المسجد.

- تعنى جمعتم المال اللازم للبناء.

- ليس بالضبط.

- إذن . . ؟

- هنالك محسن كبير يزور الولاية للعلاج في مستشفى زراعة الكبد . . نحن نتوقع منه المساعدة .

قالت وهي تنحني لتأخذ بعض ما وقع على الأرض من فتات الطعام المتناثر :

- إذا صحت نيتك فإن التوفيق حليفك ، وسوف تقر عينك بهذه الأمنية سواء عن طريق ذلك المحسن أو عن طريق غيره .

- صدقت . . ثم قال : اللهم اجعله خالصاً لوجهك الكريم .

ومضى يحمل ما معه من أطباق وهو لا يكاد يصدق أن حلمه في سبيله إلى التحقيق .

* * *

الفصل الثاني عشر

قال «عبد المحسن» مخاطباً زوجته :

- أمل؟؟!

- نعم (وأنصتت باهتمام) . . .

- «وليد» ابن خالتي سوف يحضر بعد قليل . . يتعشى معنا .

- حيّاه الله .

- أعرف ذلك ، بل حيَّاه الله وبيَّاه .

- هل هناك مشكلة؟

- لا . . ولكني أشعر أن لهجته الأخيرة معي فيها نداوة وطراوة . . فيها عاطفية أكثر .

- هل تغيّر فيه شيء؟؟

- كثير .

- مثل ماذا؟

- أصبح أكثر التصاقاً بي وبزملائي ، بصراحة كنا نعاني تهربه منَّا ، وتحاشيه للقائنا ، أما هذه الأيام فما أكثر اتصالاته

ولقاءاته وأسئلته . .

- تريد أقول لك بصراحة؟

- نعم .

- هذا «وليد» ابن خالتك حاسة الشم عنده قوية . . . منذ أن جهزت وجبة العشاء وبدأت رائحتها تتصاعد حتى اخترع هذا العذر ليأتي ! !

ضحك من دعابتها وقال :

عنده حق يا «أمل» وهل يستطيع أحد مقاومة إغراء طبخك الذي لا يمكن أن يعدَّه أي فندق من فنادق الخمس نجوم، ولو اجتمعت كلها .

- لا . . . يكفي واحد منها .

- ترى كلامي ليس بعيداً عن الحق؛ لأنهم لا يعرفون هذه الأكلات الشعبية الشهية .

ثم مضت تعدّ مائدة العشاء . في أثناء ذلك كان «وليد» يقرع جرس البيت . ذهبت «منايز» تفتح له الباب . . توقف «وليد» يسأل عن صاحب البيت فتناهى إلى سمعه صوت «عبد المحسن» يقول :

تفضل يا «وليد» . . . (ثم أضاف) : «يا منايز» دعي

عمَّك يدخل إلى صالة الضيوف .

دخل الضيف وهو يمسك بيد (الطفلة) يداعبها ويخرج من جيبه قطعة من الحلوى ينفحها إياها .

في هذه اللحظة دخل إلى الصالة «عبد المحسن» . . . أبدى له التحية والترحيب بقدومه ، قال له «وليد» :

- أريد أن أفاتحك في أمر .

- نعم .

- الحقيقة هو أمر شخصي لكني أريد رأيك فيه .

- خير إن شاء الله .

- هو خير .

وفيما أراد أن يتحدث قاطعه «عبد المحسن» قائلاً :

- يبدو أن الأفضل أن يكون الحديث على مائدة العشاء . . . كاد العشاء يبرد .

ونهض الاثنان إلى حيث وضعت المائدة ، وهناك كان «وليد» يحدث ابن خالته عن معاناته في هذه الولاية . قال له :

- يبدو أن هذه الولاية لا تناسبني ، أنا مضطر أن أدرس

في ولاية أخرى.

- لا تناسبك؟! (ثم أردف) من أي ناحية؟

- من نواح كثيرة أهمها أنني كلما أردت أن أستقيم أجد الصوارف هنا تحول دون استقامتي.

- تقصد «د. بهاء».

- «د. بهاء» وغير «د. بهاء». إنني أعيش في تحدٍّ معها، وغالباً ما أنهزم... أشعر أن كل شيء هنا يمنعني من السير في طريق التوبة، إذا مشيت خطوة رجعت أخرى إلى الوراء... وهكذا أشعر أنني كما يقولون: (مكانك سر).

- أنا أدرك شعورك.

- أريد بيئة جديدة.

- وهل في نيتك ولاية معينة؟

- لا ولكن لي شرط واحد.

- ماذا؟

- أن أكون مع أناس صالحين.

- الخير كثير.

- هذا بالنسبة لك... لأنك تضع في اهتمامك التعرف

على الأخيار . . أما الذي ليس له صلة بهم فهو لا يرى إلا ما يكرهه .

- «وليد» . . . ألا يؤثر هذا في دراستك؟

- أيُّ دراسة؟؟ هل تسمِّي ما أقوم به دراسة؟ . . الله المستعان . . !! صدقني إنني آسف للأيام الماضية . . . أريد أن أعوِّض ما فات .

- هذا تحوُّل لم أكن أحلم به .

- الحمد لله .

- هل تذكر؟ كنت تملُّ مني ومن زملائي عندما نزورك .

- وهل هو ملل فحسب؟ إنه أكثر من ذلك .

- والآن تشترط في الولاية التي تسافر إليها أن يكون فيها من كنت تهرب منهم!

- لكنك لم تقل لي رأيك .

- لقد كنت أحاول معك كثيراً، وكنت تواجهني بحركات وتصرفات تجعلني أيأس من رجوعك إلى الحق . . . فسبحان مغير الأحوال . . **﴿إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون﴾** . . . ها أنت تتحول إلى الخير والصلاح . . ما أعظمها من نعمة!!

كانت عينا «وليد» تفيضان بالدمع وهو يستمع إلى كلام ابن خالته «عبد المحسن».

- قال له: إذن أنت ترى رأيي؟

- كنت أتمنى لو أمكنك الإقامة هنا لكان خيراً لي.. أجد فيك عوناً ومنك تعاوناً... بعد أن عرفت الطريق الصحيح كنت أود لو تساعدني في أموري... إنك لا تتصور حجم المعاناة التي تواجه الإنسان في البداية، لكنها كلها تمضي، ويبقى العمل الصالح عذباً حلواً.

- «عبد المحسن»؟؟ إنني معجب بك وبزملائك.. أنتم في كل الاتجاهات متفوقون، إنه أمر يدعو للفخر والاعتزاز.

- هذا إطراء لا أستحقه.

- بل هي كلمة حق، وهي عاجل بشرى المؤمن إن شاء الله، التفوق هو ما يجب أن تسعى إليه.. كن قوياً تحترم. الأمة المتفوقة.. لا تكون إلا بأفراد متفوقين. القضية ليست الكم بل الكيف هو المهم.. لقد قرأت أن جامعة «كالتك» في «كاليفورنيا» تعد من أعظم الجامعات في أمريكا، مع أن عدد طلبتها لا يجاوز الألف طالب.

- إذن لِمَ كانت عظيمة؟

- لأن عشرين متخرجاً منها حتى الآن قد حازوا على جائزة نوبل. . نعم جائزة نوبل!! أرأيت جامعة واحدة تحقق هذا الإنجاز؟

- لكنَّ التفوق صعب.

- صعب لكنه لذيذ. . . لذيذ جداً. . . إن لذته تنسيك كل ما بذلته من عناء. . . (ثم أردف مواصلاً الحديث): لكن التفوق لا يكون إلا بالتخصص. . . التخصص هو الذي يعمِّق المعرفة ويثريها، أما الدراسات العامة فهي تبديد للجهود. في رأيي أنه انتهى عصر الرجل الموسوعي. .

إن العالم يشهد انفجاراً معرفياً لا يستطيع الفرد الواحد إزاءه إلا أن يتخصص تخصصاً دقيقاً جداً.

وقطع «عبد المحسن» الحديث فجأة قائلاً:

- ولكن يبدو أننا خرجنا على الموضوع، (ثم أضاف):

- أنت لم تتعش يا «وليد».

- أكلت كثيراً كثَّر الله خيرك، طعامك شهي - ولكن. . (وسكت برهة).

- ولكن ماذا؟

- ولكن حديثك أشهى . . . إنني في أمسِّ الحاجة إلى من يحدثني عن الجد والاجتهاد والتفوق، أتدري إن اللهو ينتهي بالإنسان إلى الملل؟ يشعر الإنسان معه أنه تافه . . . لا وزن له . . . لا قيمة لوجوده .

- «وليد»؟؟ إنني أشد على يدك مهنئاً، فمع أن بقاءك هنا مهم بالنسبة لي، إلا أن مصلحتك بالفعل أن تكون في بيئة أخرى .

- هل تنصحني بولاية معينة .

- ما رأيك بولاية «ويومنج» ففيها عدد من الأصدقاء، لا يشقى بهم جليسهم . . أحَسبهم كذلك والله حسيبهم .

ثم أردف ضاحكاً :

- وهي قريبة منَّا، إن فيها المنتزة الوطني «يلوستون» وأظنه أكبر منتزه في أمريكا، وأهم من ذلك أننا إذا أردنا التنزه هناك سوف نجد لنا أهلاً يقومون بالواجب .

ضحك «وليد» وقال :

- أبشر . . !! والله من عيوني يا «أبا مناير» .

- تسلم يا «وليد» . لا أظنني أنسى روعة الطبيعة هناك، النوافير البخارية، والبحيرات ذات المياة المتلألئة،

والحيوانات المختلفة التي تتحرك بكل حرية، فهناك أكبر محمية للحيوانات الفطرية، وغابات، وشلالات. . . إنني أتعجب كم يمرون على كل هذه الروائع ثم لا يهتف الواحد منهم من أعماق قلبه: **﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار﴾**؟

- يا الله نعيم الجنة!!!

- صدقت. . يا الله نعيم الجنة!!!

- أنت شوَّقتني أكثر للدراسة في هذه الولاية.

- ستناسبك الولاية إن شاء الله، لكن تذكر أن الفرجة وسعة الصدر ليست هي الأمر المهم في اختيار ولاية (ويومنج) وإلا تكون ما عملت شيئاً بسفرك من عندنا.

- شيء آخر أريد إخبارك به.

- ما هو؟

- لقد قررت أن أتزوج.

- ما شاء الله!! مبارك مقدماً، هذه خطوة كبيرة. . كبيرة جداً.

- أرأيت كيف تجري الأمور؟!

- أسأل الله لنا ولك الثبات .

نظر «وليد» في ساعته وقال : لقد جئت لأقضي معك بضع دقائق وها هو ذا الوقت يمر دون أن نشعر . ثم أردف ضاحكاً :

- الحديث معك بدأ يحلو .

- أشكرك على المجاملة .

- ما بيننا مجاملات . أستودعك الله .

وخلال بضعة أيام كان «وليد» قد أتم انتقاله إلى ولاية «ويومنج» ومنذ أن وصلها لم يشعر فيها بالغربة ، لأن عدداً من الأصدقاء كانوا في انتظاره ، لقد أصبح يؤمن أن الصداقة في الغربة وطن ، كما أن الوحدة في الوطن غربة ، كان كل شيء قد هيىء له ، شعر أنه بحق شخص له تقديره واحترامه . أدرك أن منح التقدير لإنسان يعني له كل شيء .

وفي اليوم الثاني لوصوله قرر أن يكتب رسالة إلى ابن خالته «عبد المحسن» ، شعر أنه يكتبها هذه المرة بعيداً عن الرسميات والمجاملات ، أحسَّ أنه لا يتكلف ولا ينمق خطابه ، وترك القلم يسطر بحرية تامة فيض مشاعره .

* * *

الفصل الثالث عشر

- لشد ما أتألم لحال «مسز بودي» .

قالت «أمل» تلك الجملة وقد بدا على محياها شيء من الألم .

رد «عبد المحسن» :

- إلى هذه الدرجة أنت متأثرة لحالها؟

- هذه العجوز بحاجة إلى أن نمدَّ لها يد المساعدة . . إنني حزينة من أجلها ، ألم يقل رسول الله ص : (في كل كبد رطبة أجر)؟

- لكننا ما قصرنا معها .

- آه . . !! لو نستطيع أن نحضر لها تلك التي شغلت روحها .

- تقصدين ابنتها «جين» .

- نعم . . ومن غيرها؟؟ يجب أن نسعى لتراها أمها ولو يوماً واحداً . . . هذه العجوز المسكينة تعيش في حزن وألم .

وراحت تقص عليه قصة ذلك اليوم الذي صعدت لإيقاظها وكيف بدت العجوز المسكينة في وضع مأسوي حاد، إنها تكاد تفقد عقلها.

- ليتك تستطيع أن تبحث عن «جين».

ردَّ عليها بلهجة تساؤل:

- ومن قال لك إنني أعمل تحريا خاصاً.. وفي أمريكا أيضاً؟؟

ردَّت عليه بتودد:

- أرجوك نحن نحكم على هذا العمل بالإخفاق، ونحن لم نعمل أي شيء بعد.. سنصل إلى ما نريد إن شاء الله... ما رأيك أن تفكر في الخطوة الأولى، وبعدها يصير خير.

قال معقباً:

- الخطوة الأولى (ثم سكت برهة)..

قالت بتلهف:

- هيه.. ما هي؟

- الخطوة الأولى أن نعرف آخر عنوان لها.

- هذا سهل. ثم ماذا؟

- إذا لم تكن موجودة في عنوانها هذا فهو سيدلنا على عنوانها الآخر الذي انتقلت إليه، ونجعله بداية لمعرفة مقرها، ويمكن معرفة عناوينها الأخرى بعد ذلك ولكن بشيء من الصعوبة.

قالت «أمل» بتودد:

- أنت علمتني التفاؤل.. فهل تسمح لي أن أذكرك ما علمتني؟

- لا أخفي عليك أن الأمر ليس سهلاً كما تتصورين (وأردف): هذه شؤون خاصة.. وأنت تعرفين أن الحرية الشخصية هي إله يعبد من دون الله في أمريكا.. لا أحد يسمح لك بالتدخل في حريته، حتى وإن كنت تريدين الخير له.. إنه لا يثق أن أحداً يحب له الخير ومن هنا يحذر كل الحذر.

- علينا أن نحاول... نحاول فقط.

- ما دمت مصممة، اذهبي الآن إلى «مسز بودي» وأحضري آخر عنوان لابنتها...

- هل أخبرها بما ننوي عمله أم نتركه مفاجأة؟

- لا . . لابد أن تعلم . . . أظن أن لديها معلومات عنها سوف تفيدنا كثيراً . . . وتختصر علينا كثيراً من الإجراءات .

ثم أردف :

- كوني في غاية الحذر معها .

- ماذا تقصد؟

- أشعريها أن الأمر صعب جداً . . . وأن ما نقوم به مجرد محاولة ليست مضمونة النتائج .

- عرفت . . . تخشى ألا يفلح مسعانا في إحضار الفتاة فتزيد آلآم الأم وحزنها .

- بالضبط . . ربما نعرف عنوانها . . . ومع ذلك لا نستطيع إقناعها بزيارة أمها ، وبالتالي فكأننا لم نعمل شيئاً .

- الله يعين .

قالتها «أمل» وهي تصعد السلم للقاء «مسز بودي» .

وحين صعدت «أمل» إلى «مسز بودي» فتحت معها قضية عودة ابنتها «جين» . لبثت العجوز صامتة ، ثم رفعت عينين واهنتين فيهما مزيج غريب من مشاعر التوجس

والأسى، قالت بصوت ينم عن التحسر:

- إنك تضيّعين وقتك.

- هذا الأمر يخصني.

- إنني أعرف النتيجة سلفاً.

- أنت يا «مسز بودي» تتوقعين فقط، وربما جاء الأمر مخالفاً لتوقعك... اتركي فرصة للأمل.

- الأمل.

- نعم.

- لقد تركتني «جين» أعيش بلا أمل، منذ غابت عني وأنا لا أجد للحياة مذاقاً... إنني أشفق عليك إذا ما أهملتك «جين»، ورفضت محاولتك.

- هذا شأني (وأردفت بابتسامة):

- وتذكري أن اسمي «أمل»!!

- ... ثم إني لا أعدك بنقود على جهدك أنت وزوجك.

- وهذا أيضاً لا يهم.

وشعرت العجوز أن محدثتها تزداد إصراراً على تنفيذ ما

عزمت عليه، فقالت بلهجة استسلام:

- ماذا تريدين مني بالضبط؟

- أريد عنوان «جين».

- لكني لا أعرفه. إنني لا أعرف أين هي الآن.

- فليكن آخر عنوان تعرفينه لـ «جين».

- أما هذا فلا بأس. انتظري إنه هنا، ثم مدت يدها إلى كراس أنيق في أحد أرفف المكتبة، ولم يطل بحثها عن العنوان لقد كان مكتوباً في الصفحة الثانية من ذلك الكراس، فراحت تنقله على ورقة صغيرة، ثم مدت بيدها إلى «أمل» وهي تقول بصوت أسيف حزين:

- صدقيني يا ابنتي لن تعود «جين» إلا في ذلك اليوم الذي تضع فيه باقة الزهور على قبري!! (ثم أردفت) أنا متأكدة من ذلك.

خشيت «أمل» أن تثير مشاعرها أكثر فأخذت الورقة من يد «مسز بودي» وهي تقول:

- لا عليك.. سوف ترين.

ثم نزلت السلم بخطوات سريعة وسلمت العنوان لزوجها.

أخذ «عبد المحسن» العنوان واتصل بمكتب استعلامات البريد. وحين ردَّ عليه الموظف، سأله عن إمكانية معرفة العنوان الجديد بناء على وجود العنوان القديم.

قال له الموظف:

- الرسائل التي تصل على عنوانك القديم نحيلها إلى مقرك الجديد وذلك في المعتاد خلال ستة أشهر من تغيير العنوان، أما في الحالات الاستثنائية فيمكنك التفاهم مع إدارة البريد وهي تنسق معك برسم إضافي بحيث تصلك كل الرسائل التي ترد على عنوانك القديم طوال المدة التي نتفق معك عليها.

كانت إجابة موظف البريد بارقة أمل.

قال له «عبد المحسن»:

- وإذا تعددت حركة تغيير العنوان؟

أجابه الموظف:

- ربما يكون البوليس أفضل منَّا في هذه الخدمة. ثم أردف:

- أنت تعرف الرقم.. أليس كذلك؟

عرف «عبد المحسن» أن الموظف يريد إنهاء المكالمة فقال له:

- نعم.. شكراً لك.

ثم أنزل سماعة الهاتف، وراح يتحدث مع زوجته عن الخطوات القادمة، وإذ بـ «مسز بودي» تنزل وهي تحمل مظروفاً بيدها، وحين نزلت آخر درجة في السلم أشارت بالمظروف إليهما وقالت:

- أوه.. ما زلتما جادين في..

- نعم.

- إذن خذا.. هذا هو رقم عملها قبل ثلاث سنوات..

أظن أنه سوف يكون أسرع من انتظار أية إجابة من مصلحة البريد.

ومدت يدها به إلى «عبد المحسن»، فأخذه منها، وفيما كان يطالع الرقم كانت «مسز بودي» تجلس بجوار الهاتف وتخاطبه بقولها:

- أملِ عليَّ هذا الرقم بهدوء.. (ثم أضافت):

- إنها ابنتي وهي تهمني، فلماذا أقف مكتوفة الأيدي، وأكتفي بالفرجة وأنتما تؤديان عملاً كان الواجب أن أؤديه

أنا بنفسي؟؟

فرحت «أمل» وشدّت على يد «مسز بودي» وتقول:

- إذن أنت لم تيأسي من رجوعها؟

- هل تصدقيني لو قلت لك: أنني أتوقع عودتها في كل لحظة؟ وهذا هو الذي يعذبني.. طالما هي على قيد الحياة فلن أيأس.. ولا تصدقيني إذا قلت لك إني يائسة.. إن مشاعر الأمومة تغلب منطق العقل، وحينما يختص الأمر بابنتي «جين».. أريد أن أسمع صوتها مهما كان الكلام الذي تتكلم به. إن بي شوقاً يصل إلى حد الجنون لكي أسمع صوتها.

قال لها «عبد المحسن»:

- تذكري أن دورك ينتهي عندما تعثرين على هاتفها الجديد، عليك ألا تطلبي محادثتها.

اتسعت حدقتا عينيها دهشة وهي تقول:

- ماذا؟ أأنت جاد في قولك؟

- نعم.

- هل لي أن أعرف السبب؟

- نعم ستعرفين السبب في الوقت المناسب . . دعينا الآن نعمل فيما اتفقنا عليه .

- أنت تحيرني أكثر ! !

- صدقيني . . إن ذلك في مصلحة حضور «جين» .

- أأنت متأكد مما تقول؟

- جداً . .

- إذن . . لا بأس . .

وفيما كانت تضغط أزرار الهاتف قالت فجأة :

- أوه . . أنا آسفة . . لم أكن أريد أن أحشر نفسي بينكما ، ثم وضعت سماعة الهاتف وهي تقول : سوف أطلب هذا الرقم في هاتفي الخاص في غرفتي . . أشعر أنني أثقلت عليكما .

قال لها «عبد المحسن» :

- لماذا أنت محرجة هكذا؟

- لا . . لا . . سوف أصعد .

قالت «أمل» في لهجة مازحة :

- هل نسيت أنه بيتك؟

- ما دمتما تسكنان فيه فهو بيتكما أنتما . . لا داعي للمجاملة، سوف أصعد إلى الطابق الثاني . . تصبحان على خير .

حينما رَقَتْ «مسز بودي» قالت «أمل» :

- أنا لا أكاد أفهمك .

- ماذا؟

- أنت تعرف كيف أن العجوز سوف تطرب لسماع صوت «جين»، فكيف تطلب منها ألا تكلمها؟

- أقول لك .

- ماذا؟

- قضية «جين» تتكون من مشكلتين .

- نعم؟؟

- الأولى : البحث عنها .

- هذا أمر يبدو ممكنا الآن أكثر من أي وقت .

- والمشكلة الثانية : إقناع «جين» أن تأتي لزيارة أمها والبقاء بضعة أيام إذا أمكن . . وهي في اعتقادي أكبر من المشكلة السابقة .

- هذا أمر سابق لأوانه .

- لا . . بل من الضروري التعامل مع المشكلة وكأننا فعلاً عثرنا على الفتاة .

- وهل لهذا علاقة بما طلبته من العجوز؟

صمت برهة ثم قال :

- هل تذكرين عندما نزلت من عند العجوز، لقد قالت لك : إنها متأكدة أنها لن تأتي إلا في اليوم الذي تضع فيه الزهور على قبر والدتها . . أليس كذلك؟

- نعم . . هذا ما قالته .

- علينا إذن أن نخبر الفتاة أن أمها ستموت، وأن عليها أن تحضر لتلقي عليها النظرة الأخيرة .

- هذا خطير . . !!

- ليس هنالك حل آخر .

- هذا كذب . . !!

ضحك «عبد المحسن» ، وقال بلهجة المنتصر :

- وهل ستبقى «مسز بودي» أبد الدهر . . إنها ستموت حقاً . . وكلنا سيموت ليس في هذا شك . . أليس الله

تعالى يقول ﴿**كل نفس ذائقة الموت، ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون**﴾. ثم هذا من الإصلاح بين الناس مما لا يكون إن شاء الله مذموماً.

قالت:

- أنا.. وفهمت هذه الحركة، ولكن «جين»... من يضمن ألا تسيء لنا إذا جاءت ووجدتنا قد أخبرناها بغير الحقيقة؟

- ما أظن شيئاً صعباً سيحدث.

- أنسيت أنك في «أمريكا» بلد العجائب في الدعاوى والتعويضات، تنسكب الشوربة على قميص أحدهم فيطالب المطعم بغرامة مائة ألف دولار، وآخر من أجل شيء تافه يطالب بتعويض نصف مليون، وهكذا عشرات القصص والأخبار.

- أأنت خائفة؟؟

- هذه بنت عاقة لوالدتها، وإذا حضرت فعليك أن تستعد لكي تدفع أرقاماً خيالية من التعويضات حين ترفع علينا دعوى: قطعنا لعملها، وحضورها، وانزعاجها النفسي الذي لا يمكن أن تتسامح فيه.

- إذن ثقي أنها لن تمسك علينا ولا كلمة واحدة، ألم توافق «مسز بودي» على الفكرة؟

- نعم.

- إذن دورنا أن نخبرها برغبة أمها، ونضع تلك الدعوة على طبق مليء بالتوابل والبهارات بحيث تفتح الشهية للأكل. فإذا أكلت فهي الملومة.

- إلى هذا الحد أنت واثق.

- كل الثقة.. إن شاء الله سترين أنها ستشكرنا أيضاً.. (ثم أردف):

- ليست المشكلة عندي متعلقةبالفتاة حينما تعرف جلية الأمر، إذ بإمكاننا أن نجعله في صورة مفرحة، لكن المشكلة الكبرى أ ن نتأكد أن العجوز ترضى حقيقة بهذه الخطة.

قالت «أمل» في ثقة بالغة:

- «مسز بودي» دعها لي.. إنها ستقبل عودة ابنتها الغالية مهما كلفها ذلك من عناء.. إنني أكاد أجزم أنها لن ترفض هذا العرض السخي لرؤية ابنتها، بل ستبصم بأصابعها العشرة موافقة، وستقبل ما نفعل دون قيد أو شرط.. ثم أردفت:

- سأسألها رأيها للمرة الثانية وأنا أعلمه تماماً . . ربما لو لم أكن أماً لما كنت واثقة بهذا الشكل . . فقلب الأم بحر من الحب تضيع على أمواجه المتلاطمة كل مشاعر الغضب على الأبناء .

* * *

الفصل الرابع عشر

في واحد من أكبر مستشفيات مدينة «دنفر»، وفي الموعد المحدد كان الصديقان يدخلان على الثري الكبير «أبي فهد» غرفته، كانت خالية من الضيوف.

تقدم منه «أبو راشد» ومد يده مصافحاً وهو يقول:

- طهور.. طهور إن شاء الله.

- إن شاء الله.. بارك الله فيك.

أضاف:

- ما ترى بأساً.

- إن شاء الله.. جزاك الله خيراً.

ثم دنا منه «عبد المحسن» فسلّم عليه ودعا له، وجلسا قبالة الرجل المريض، يسألانه عن صحته، ثم عرّف «أبو راشد» بصديقه «عبد المحسن» وغمره بعبارات تقديرية احمرّ لها وجهه خجلاً، فلم يكن ليتحمل وقع كلمات الثناء.

كان «أبو راشد» و«عبد المحسن» محرجين تماماً، وكانت الكلمات تتلاشى من شفتيهما، فهما لم يتعودا مثل هذا

الموقف، كانت مظاهر هذا التردد والحيرة بادية لا تكاد تخفى، وبخاصة على من كان في مثل عمر ذلك الرجل الكبير الذي قال مخاطباً «أبا راشد» في نبرات وادعة حانية:

- هل تريد أن تفاتحني في أمر؟ (ثم أضاف):

- هل ثمة مشكلة معينة؟

- لا أبدا.. المهم هو أن تخرج بالسلامة.

- يا ولدي.. لا داعي للحيرة والقلق.. أخبرني.

- لا شيء.. الحمد لله على سلامتك.

نظر إليه نظرات ذات معنى ثم قال:

- لم تقل لي بعد.. ماذا لديك؟ المناورة لا تجدي معي.

- هل سمعتني أطلب شيئاً؟

- لا.

- إذا فلم تتوقع أمراً كهذا؟

- هذا يرجع إليك، إن كان ثمة أمر أستطيع فيه مساعدتك فأنا لن أتأخر.. ما رأيك؟

كانت لحظة ثمينة ليس من الصواب أن تضيع سدى، فتشجع «أبو راشد» وقال:

- إنك أحرجتني حقيقة بلطفك، وأنا لا أخفي عليك أني أهم بأن أفاتحك في أمر ليس لي ولكنني متردد.

- ما دام أنه لا يتعلق بك، فأنت إذا واسطة خير.

- أظن هذا.

- ما هو؟

- قال «أبو راشد»: زميلي عنده موضوع وأحب أن تسمعه منه.

نظر «أبو فهد» إلى «عبد المحسن» نظرات مشجعة كأنما يطلب منه أن يتحدث.

وهنا قال «عبد المحسن»:

- يا «أبا فهد».. يسكن هذه الولاية عدد ليس كبيراً من الطلبة السعوديين، ومن بعض الطلاب المسلمين الآخرين، وبعض الأمريكيين المسلمين الجدد، ونعاني من عدم وجود مسجد يجمعنا، وإننا قانعون فقط في تأسيس مسجد صغير نؤدي فيه الصلاة، ونلتقي فيه، ويكون نقطة ضوء في هذه الظلمة التي نشعر بها، ويداً حانية تخفف وطأة هذا الخواء الروحي، والنظرة المادية المقززة، التي لا يجد المسلم غيرها في هذه البلاد.

(وأضاف):

إن الفكرة من حيث هي فكرة تراود كل زملائي الذين يعانون ما أعانيه، وربما كانت معاناتهم أكثر من ذلك، ولكن هذه الأفكار تتحطم على صخرة الواقع الذي يكشف ضعف إمكاناتنا المحدودة عن الوفاء بهذا العمل، وحين علمنا بوجودك هنا أحببت أنا وزملائي أن نعرض عليك فكرة بناء المسجد، ونحن نطمح أن يتحقق ذلك الأمل على يديك، هذا هو كل ما في الأمر.

كان «أبو فهد» يستمع إليه باهتمام، قال له بعد أن فرغ من حديثه:

- أنا مستعد أن أسهم بتمويل نفقات بناء مسجد لكم هنا.

كان تجاوبه السريع مفاجأة لـ «عبد المحسن» الذي صرخ بلهفة:

- الله يجزيك الخير ويخلف عليك.

- إنني أتوسم فيكما كل الصدق والأمانة.

- شكراً لك.

- أنا لا أجامل، وأنا مستعد لبناء المسجد، لكني أريد أن

أتأكد فقط من الحاجة الفعلية له .

- هذا من حقك .

- صدقني إنني رأيت مساجد بنيت على أحدث طراز وفرشت بأثاث فاخر ، وهي تشكو قلة المصلين ، وربما مرَّت عليها عدة أوقات لم يصل بها أحد .

- أنا ما رأيت شيئاً من ذلك .

- أنا رأيت . . وأقول لك عن خبرة ، ولذا فإذا كانت الحاجة إلى المسجد مُلحَّة فدع هذا الأمر عليّ . . إنني أشعر بكثير من الراحة ، بعد إجراء العملية ، وأرى أن مما يجب علي ؛ أن أنفق من مال الله الذي جعلني مستخلفاً فيه . . (ثم أضاف) :

إنك لا تدري يا ولدي كيف كان شعوري وأنا أرى نفسي تكاد تودع هذه الحياة . . لحظتها تمنيت لو كنت متصدقاً صائماً . . إنها لحظات ثمينة . . ثمينة جداً ، اكتشفت فيها قيمة الأشياء ، كانت لحظات عصيبة من الألم . . أسأل الله ألا يعيدها عليّ ولا يريها لأي مسلم .

ثم صمت برهة ، عاد بعدها ليقول :

يا «عبد المحسن» لا تردد في أمر يخص البِرَّ ، أنت لا

تسأل لنفسك شيئاً . . يا ولدي إنك لا تمتهن كرامتك إذا كنت تسأل لله تعالى، مثل بناء هذا المسجد، أو مثل عمل برٍّ . . !! لا تتردد أبداً فهذه أمور عظيمة، لا يمكن تحقيقها إلا بالصبر والتضحية من وقتك ونفسك ومالك . . تذكر وصيتي هذه لك، لا تقلق على كرامتك، فهي في الحفظ والصون، إذا أخلصت العمل لله تعالى، اجعل رأسك رفيعاً عالياً فهذه مكرمة وليست سبب مهانة أو مذلة .

- كـــلامك لي أعظم من كل شيء، إنك تجـــعلني لا أتردد . .

- نعم . . لا تتردد . . لا تتلعثم . . أنت في مركز قوة ما دمت تعمل لله . . حدِّث نفسك بهذا فسترتفع معنوياتك .

ثم قطع كلامه وقال :

- اكتب بياناً بعدد المسلمين الذين تعرفهم، وبكلفة المبنى إذا أردتم شراءه أو كلفة البناء إذا أردتم مبنى جديداً، وحين أتأكد من أن بيت الله لن يكون مهجوراً، وأن المسجد لن يكون بعد ذلك في يد طائفة منحرفة، إذا تأكدت من هذا كله فاعتبر أ ن الأمر منته، وسأتولى الموضوع كله، ما رأيك؟

- هذا هو أملنا فيك، الله يجزيك الخير . . غدا، بعون

الله، سوف أكون عندك ومعي كل المطلوب، إننا نريده مبنى صغيراً. . لا نريد مظاهر. . يكفينا الحد المعقول جداً من البناء. . لا نريد مظاهر فارغة، فعمارة المسجد إنما تكون بالصلاة فيه، وليست بالفسيفساء وأحجار الرخام التي يزين بها.

- هذا يدل على أننا متفقان. . أعدّ لي ما طلبت، ويصير خير إن شاء الله.

شعر «عبد المحسن» أن الجملة الأخيرة توحي برغبة الرجل في إنهاء الحديث، فأدرك أنه أثقل عليه، فقال في اعتذار لطيف:

- آسف إن كنت نسيت حاجتك للراحة، فالحديث بالنسبة لي كان مُهماً.

- لا عليك.

- غداً بعون الله سوف أكون عندك، ومعي كل ما تريد من معلومات حول الموضوع، وأشكرك سلفاً.

- الشكر لله يا ولدي، ثم مد يده مصافحاً وهو يقول:

- خير إن شاء الله.

وخرج «عبد المحسن» وصديقه «أبو راشد»، وكان «عبد

المحسن» في غاية الفرح والسرور.

أيمكن أن يحدث هذا حقاً؟ أيتحقق حلمه الذي يحلم به في اليقظة والمنام؟، وحمد الله على مفاتحة الرجل بالموضوع، بدا المستقبل أمامه أخضر يتلألأ إشراقاً وضياء، وخرج من المستشفى واستقل سيارته متجهاً إلى منزله، وعرَّج في طريقه على أحد متاجر الحلوى الشهيرة، فاشترى منها قدراً مناسباً، ثم مضى إلى المنزل، كان سعيداً نشيطاً، هذه هي نفسية الإنسان حين يشعر أنه قد حقق أملاً من آماله، والتفّت أسرته الصغيرة حوله تسأله عن سبب هذا الانشراح، وعن سبب هذه الحلوى الفاخرة، قال:

- اسمعوا.

قالت زوجته:

- ماذا؟

- لقد تحقق الحلم، سوف يكون لنا إن شاء الله مسجد..

يا له من حلم لذيذ ممتع!!

- إذن ذهبت إلى الرجل المحسن وفاتحته.

- نعم. وتعهد بكل شيء يستلزمه البناء (ثم أضاف):

ليس غريباً أبداً أن يكون أول عمل للرسول ص بعد

وصوله إلى المدينة، أن يبني المسجد، كان مسجداً متواضعاً في شكله، لكنه وبشهادة الله تعالى قد أسس على التقوى من أول يوم، كان الرسول ص نفسه يحمل مع صحابته الكرام الطين والحجارة، بل كان يشاركهم حتى في نشيدهم الذي كانوا ينشدونه وهم يقومون بالبناء، كان يردد معهم:

اللهم إن العيش عيش الآخره فاغفر اللهم للأنصار والمهاجره

فإذا ردد معهم أخذتهم الحماسة فقالوا:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

إنه مغزى عظيم، وراح يتذكر قول الرسول ص (من بنى لله مسجداً ولو قدر مفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة).

وسبح بفكره في مستقبل وردي بديع، وهو يحلم أن هذا المسجد قد كبر وأصبح مركزاً إسلامياً مرموقاً في إنجازاته وأعماله، كان من شدة فرحه غير راغب في الطعام والأكل، هذا في الوقت الذي أكبّت فيه أسرته الصغيرة على الحلوى التى جاء بها.

كانت هذه الأفكار التي تطوف بخياله ألذ عنده من الحلوى وأشهى.

وبعد مرور وقت ليس بالطويل كانت «دنفر» المدينة اللاهية الغافلة، تشهد لأول مرة في تاريخها، إنشاء هذا المسجد الصغير، بقعة من أحب البقاع إلى الله ﴿**في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب**﴾.

* * *

الفصل الخامس عشر

وأخيراً وافقت «جين» على الحضور حين أخبرها «عبد المحسن» أن والدتها مريضة مرضاً شديداً، مرض الموت، ولذا جاءت لتلقي عليها النظرة الأخيرة، فقد خشيت إن لم تحضر فسيكون ذلك سبباً في غضب الأم، وحرمان ابنتها من الميراث.

كان «عبد المحسن» و«أمل» يطلبان من الأم البقاء على السرير على الأقل في اليوم الأول لحضور «جين»، لكي تبدو الخطة بإحكام أشد، وكانت «مسز بودي» موافقة على ذلك، ولكنها ما إن علمت بموعد مجيء «جين» حتى نزلت من الطابق العلوي، وظلت تروح وتجيء في انتظار اللحظات التي سيفتح فيها باب المنزل عن ابنتها الغالية.

وحين نزلت «جين» من الطائرة اتصلت مخبرة أنها قد وصلت، وأنها سوف تستقل السيارة قادمة إلى المنزل.

وبينما كان الجميع في الانتظار، إذ بفتاة شقراء تضغط زر جرس الباب، فتهرع الأم لا تلوي على شيء، وتفتح

الباب، وتفتح ذراعيها لتضم ابنتها القادمة بعد غياب طويل.

كان هنالك شوق عارم من جانب الأم، وشيء من برود وجفاء من ابنتها «جين» التي كانت تحاول التخلص من ذراعي أمها برفق بالغ، مكتفية بكلمات ترحيب موجزة مقتضبة.

بدا أن «جين» غاضبة بعض الشيء لهذه المزحة الثقيلة التي أقدمت عليها أمها بادعاء أنها على فراش الموت، ثم ها هي ذي تراها أمامها بصحة وعافية، ولكنها لم تر من المناسب أن تفصح عن مشاعر الغضب في نفسها، على الأقل في هذه الساعة.

أخذتها «مسز بودي» برفق وهي تتقدمها، إنها لا تكاد تصدق أن يديها تمسكان بيد ابنتها الوحيدة «جين».

ظلت الكلمات تتراقص على شفتي العجوز بتلعثم واضطراب، وفي أثناء عبورها الفناء الداخلي وقفت تعرّف ابنتها بـ «أمل». . قدمتها لها قائلة:

- «مسز عبد المحسن»، إنها تسكن مع زوجها في هذا الدور، سترين أنها امرأة جد طيبة.

فنظرت «جين» إليها وهي تمد يدها مرحبة بها قائلة:

- مرحباً.

ردت «أمل» عليها التحية، وكانت تضغط على يدها مرحبة بها أيضاً، بينما كانت تقف بجانبها ابنتها «منایر».

سحبت «جين» يدها من يد «أمل» وهي تنظر باتجاه الطفلة وصرخت بانفعال شديد وهي تتجه نحوها..

- أوه.. يا لك من رائعة أيتها الطفلة الجميلة!!

رفعتها إليها، فيما شعرت الطفلة بالخوف، فشرعت بالبكاء محاولة التخلص منها، وراحت تخدش بيدها الصغيرة وجه «جين»، فيما كانت «جين» تلصق خدها بخد الطفلة الصغيرة في انفعال شديد.

قالت وهي تنزل الطفلة إلى الأرض:

- كم أنت محظوظة بهذه الطفلة الرائعة.. أوه.. لو يكون لديَّ مثلها؟

ردَّت أمل:

- شكراً لهذه المجاملة، أنت ستأتين بأجمل منها ولا شك.

- أتمنى ذلك.

- وأنا أتمنى لك ذلك أيضاً .

- هل لديك طفل غيرها؟

- لا . . إنها أولى بناتي .

- أنت ما زلت صغيرة إذن ! !

- ما رأيك أنت؟

- أوه . يا إلهي . . لم أقصد شيئاً ! ! (ثم أضافت) : أنت لديك وقت للمزاح وأنا جد متعبة . هيه . . سأراك عن قريب .

كانت الأم «مسز بودي» قد سبقت ابنتها إلى الطابق العلوي ، وقد جاء صوتها يعلن أنها بانتظار «جين» ، فهرعت ابنة صاحبة البيت إلى حيث تسكن أمها ، وعيناها ما زالتا ترنوان إلى الطفلة .

ذهبت «جين» وقد تركت في نفس «أمل» أكثر من تساؤل : لقد ترهلت «جين» . . لم تعد بالصورة التي توقعت أن تكون عليها من خلال صورتها ، أصبح بدنها الكبير يوحي بالجد والصرامة ، خطواتها كأنها خطوات رجل في قوتها وشدتها في السير .

لاحظت وهي تسلم على «جين» صلابة يد تلك المرأة، لم تكن ناعمة رقيقة كيد الأنثى. . لم تكن تفترق عن يد الرجل في شيء، حتى وهي تضغط على تلك الأنامل كانت تشعر أنها قد خرجت عن عالم حواء، وما تتصف به من رقة ونعومة ولطف. . وغدت غير بعيد عن عالم الرجل، وإن لم يتحقق لها أن تكون رجلاً.

أما اهتمامها الشديد بطفلتها «منابر» فيثير في نفسها حيرة وتساؤلاً يصعب عليها فهمه. .

في اليوم التالي لبقاء «جين» في المنزل كان واضحاً تماماً أنها مغرمة بالطفلة، لقد خرجت فاشترت لها أنواعاً من الحلوى والألعاب. إنها هي نفسها لا تعرف كيف حدث ذلك؟ وهي التي تعلمت التوفير في نفقاتها والاقتصار في الشراء على المهم فقط.

لكنها وجدت نفسها ضعيفة. . ضعيفة جداً أمام «منابر» هذه الطفلة الصغيرة.

لم تكن تطيق أن تراها باكية أبداً. . كانت تسمع صوت بكائها وهي في الدور العلوي فتنزل سريعاً إليها، تحملها وتتودد إليها حتى تسكت، وتكفَّ عن الصياح.

وحين تكون مع الطفلة وحدها كانت تغيّب وجه «مناير» البرئ في صدرها، وترفعها تارة لتلصق خدها بخد الطفلة في لهفة صارخة، ثم تضعها أمامها وتتأمل وجهها الطفولي البريء فتغرورق عيناها بالدموع، وكانت تهمس:

- يا لسعادة أمك بك.. !! أعطتها الدنيا كل ما تريد.. طفلة رائعة مثلك.. !!

شاهدتها «أمل» في ذلك اليوم ترفع سماعة الهاتف وتتصل بعملها تطلب إجازة لمدة أسبوع وتلح في أنها مضطرة إلى ذلك.

قالت «أمل»:

- إذن ستبقى الفتاة أسبوعاً ولا شك.. سبحان الله العظيم.. كنا نخشى أن تعود أدراجها فور اطمئنانها على أمها، وها هي ذي تعلن عن رغبتها في البقاء أسبوعاً كاملاً.

وما إن انتهت من إجراء المكالمة حتى التفتت إلى «أم مناير» وهي تقول بمرح:

- سأبقى هنا أسبوعاً.. أرجو ألا يضايقك هذا.. (ثم أردفت):

- لقد طلبت ذلك من عملي.

- هل سيوافقون؟

- لابد أن يفعلوا.

- أأنت متأكدة؟

- نعم.. فأنا أقل الجميع أخذاً للإجازات، بل كان من المألوف أن أبقى في المستشفى حتى في أيام إجازتي.

- في المستشفى؟

- نعم.. إنني رئيسة للممرضات في مستشفى «جولدن هلث» في مدينة «ديتاون» في ولاية «أوهايو».. لقد أصبح العمل في المستشفى هو كل حياتي.. لقد قضيت سنوات طويلة في عمل التمريض، ومع أنني الآن رئيسة الممرضات في المستشفى، إلا أنني أحس بشعور الخيبة والإخفاق.. أشعر أنني أنفقت من عمري الكثير.. ولم أحصل إلا على القليل التافه.

ووجدتها «أمل» فرصة للمزاح، فإذا بها تقول لجين العبارة نفسها التي قالتها لها في أول مقابلتها:

- إنك ما زلت صغيرة يا «جين»!

- بالنسبة لي.. كلامك مجرد مجاملة.

- لكنك كذلك .

- لا . . إنني أعرف تماماً أنني على عتبات سن اليأس . . بعد شهرين سوف أكمل عامي السابع والثلاثين . . سأعيش وحيدة . . وأموت وحيدة . . دون أن أجد من يحزن علي . . ليس هنالك زوج ، ولا أطفال ، أشعر أن حياتهم ووجودهم امتداد لحياتي . إنني لا أستطيع أن أفكر في ذلك . . لكن كل يوم قادم يقربني إلى ذلك المستقبل الموحش . آه . . هل يمكن أن تعيش المرأة بعيداً عن زوج يشاطرها مرحلة الحياة؟ . . وأطفال يمرحون فتجد في صحبتهم ذلك الجو الرطب الندي؟ . . إنني أحلم في ليل الشتاء أن يكون بجانب سريري سرير طفل أهزه برفق . . أهدهده بلطف وحنان . . أقص عليه قصة لطيفة ، حتى إذا ما غلبه النوم قمت فقبلت جبينه ، وألقيت عليه نظرة أم لا تمل النظر إلى ابنها ، ثم سحبت الرداء عليه ، ومضيت عنه تاركة إياه في إغفاءة هانئة .

كان صوتها يختلط بنشيج متقطع . . هذه المرأة الضخمة الجثة ، في داخلها نفس ضعيفة . . تتقطع ألما وحسرة على حياتها التي تحياها ، وعلى مستقبلها الذي تتوقع أن يكون

بانتظارها، وما فيه من الوحدة والوحشة.

نعم.. إذن فهذا هو السبب في اهتمامها غير العادي بابنتها، إنها ترى فيها أملاً تهفو نفسها إليه.

إنها لا شك تشعر بقشعريرة البرد الذي ترى رياحه تهبُّ على روحها إيذاناً بأفول ربيع العمر، والتحول إلى الخريف. نعم إنها تكاد تجن حينما تفكر كيف يذبل شبابها، ويجف ماء الحياة والجمال في وجهها ويذبل جسمها كما يذبل النبات الأخضر، وتتساقط أوراق الشجرة ليبقى هيكل الشجرة فقط.

مهما يكن فالشجرة لا تفقد الأمل في عودة الربيع تارة أخرى، أمَّا هذا الإنسان فيعلم أن الشباب لن يعود!!

من حقها إذن أن تحزن.. إنها تعيش أزمة نفسية عنيفة، ربما كان مرأى ابنتي هو الفتيل الذي فجر تلك الأزمة في روحها ومشاعرها، هي الآن ولا شك تنظر إلى سنوات الحياة الماضية على أنها سنوات الفرص الضائعة التي لم تستغلها لتأمين بقية عمرها.

إن ضغط العصر هو الذي دفعها إلى الاعتقاد أن التأمين المالي هو كل شيء، وها هي ذي تأخذ نفسها بالتقشف

والتقتير، ولعلها استطاعت أن تجعل لها رصيداً طيباً في المصرف.

لكنها الآن تكتشف أن الرصيد الحقيقي للمرأة والرجل على السواء أن يضمهما بيت الزوجية، ففيه وحده تتحقق إنسانية كل واحد من الرجل والمرأة على السواء.

* * *

الفصل السادس عشر

كانت «جين» تعبث بسيجارة في يدها، لم تشعلها تقديراً لـ «أمل» التي أخبرتها أن دخان السيجارة يسبب لها مضايقة.

قالت مخاطبة «أمل»:

- أنا أهنئك.. لديك زوج متزن، لا يطمح في غيرك، وأعقبت ذلك بابتسامة.. (ثم أضافت):

- أنا وأنت بنات حواء، مهما اختلفت مواطننا، فالمرأة هي المرأة، والرجل هو الرجل.

أثارت «أمل» تلك الجملة الأخيرة، فقالت باندهاش:

- ماذا تعنين؟

وصوبت نحوها نظرات فيها الكثير من التساؤل:

رفعت «جين» يدها، وربتت على كتف «أمل» وهي تتصنع الابتسامة، وأردفت قائلة:

- أنت غاضبة من أجله.. لا بأس.. لا ألومك أبداً.. لا أخفي عليك أنني حين جئت لزيارة أمي ووجدتكم تسكنون معها، وبقيت ثمانية أيام حتى الآن، لم يكن يخطر

في بالي أن يتغافل زوجك، وهو الرجل الشرقي، عن وجودي، أكاد أقول: إن عيوننا لم تلتق أبداً، إنه يتحاشى كل موقف أكون فيه، حتى عندما أمرُّ يصوّب نظره نحو شيء آخر. . . غيري بالطبع!! صدقيني. . إنه يغير الكثير مما عرفته عن العربي. . رأيت فيلماً سينمائياً قبل أعوام، رأيت فيه كيف بدأ العربي يضيع لحظة رؤيته امرأة جميلة، وكيف ينهار. . في ذلك الفيلم كان كل شيء يؤكد في شخصية ذلك العربي أن الجنس يعني له أكثر مما يعنيه لكل الناس.

ربما كان في ذلك الفيلم مبالغة، بل أظن فيه مبالغة ولا شك، لكني لن أنسى موقفه، وهو ينظر إلى فتاة شابة، عرفت فيه نقطة الضعف تلك، فراحت تأخذ منه كل ما تريد، وهو لا يستطيع أن يرفع ناظريه عن جسمها الفاتن المثير، الذي فيه الإغراء كل الإغراء. . وقد تعمدت أن تضع نفسها في موقف تبدو فيه بالغة الإثارة.

وحين خرجت من دار السينما ظل مثل ذلك المشهد يلح في خاطري، وبقيت صورة العربي عندي متجسدة في تلك الصورة التي رأيتها. . اندفاع وحشي نحو المرأة، إنني الآن أوازن بينه وبين رجل مثل زوجك فأكاد أصعق للفرق

الكبير، إنه يسير هنا وابنة حواء في كل مكان، تكثر من المساحيق، وتنفح نفسها بأزكى العطور، وتختار كل ما يثير، لكنه يمر بها، ثم لا يكترث لها، إنه نمط فريد يكشف زيف ذلك الفيلم الذي رأيته ومبالغته الممجوجة! لقد حدثتني أمي عنك، وعنه، وأنه:

لا يتعلق إلا بك،

ولا ينظر إلا إليك،

ولا يفكر إلا فيك،

أنت وحدك عالمه، وأنت وحدك دنياه، هنيئاً لك به!! بل هنيئاً له بك!! فأنت لا تقلين وفاء وإخلاصاً عنه!!

لن أجاملك.. إنني أحسدك على زوج كهذا، يملأ عليك البيت دفئاً وحباً وحناناً.. وضجيج الطفولة الصاخب الحلو يعطر كل ركن من أركان المنزل.. فأينما كان ذلك المنزل؟ وكيفما كان؟ فهو منزل الأحلام والسعادة، (وتوقفت قليلاً.. ثم أردفت بصوت هادىء متقطع):

- مهما يكن الأمر.. فالمرأة لا يمكن أن تفضل الصديق على الزوج، إن في المرأة طبيعة حب الاستقرار، والزواج يعني لها كل ذلك.

كان حديث «جين» يبدو أنيناً مكبوتاً، وترنيمة حزن، تتجلى فيه حيرة الفتاة في مستقبلها الذي يغدو قلقاً وهماً بعد تجاوزها مرحلة المراهقة العابثة.

كانت «أمل» لا همّ لها سوى رؤية التعبيرات النفسية التي ترتسم على وجه محدثتها.. المرأة هي أقدر من غيرها على قراءة المرأة.

كان واضحاً أن لدى تلك المرأة الكثير مما تقوله، وتحب أن تجد أحداً يفتح قلبه من أجلها.. من أجل أن تفصح عن مخاوفها، وآلامها، فوجدت في «أمل» ذلك الذي تبحث عنه. لقد رأت «جين» أن دوامة الحياة لم تبتلع هذه المرأة العربية، لم تجعل منها ترساً في عجلة كبيرة، فهي تجد وقتاً للاهتمام بزوجها، وللاهتمام بأطفالها وبنفسها، فتغدو دائماً في مظهر جميل نظيف، وهي كذلك تجد وقتاً لتتحدث معها في جو لا يحدُّ من البساطة واللطف.

وكانت «أمل» تدرك أن انتماء «جين» إلى بلد حضاري لا يعني أنها قد بلغت الكمال، فـ«جين» نفسها تشكو قلقاً واضطراباً، وهي نفسها قالت لها ذات مرة: إن ثلث الأسرّة في مستشفياتنا يرقد عليها مرضى نفسيون، وإن أكثر العلاج تصنيعاً وتوزيعاً في بلدنا هو علاج قرحة المعدة، وإن الشعب

الأمريكي هو أكثر شعوب العالم استهلاكاً للأسبرين، وهي كلها ترجع إلى عدم التوازن النفسي، كان إدراك ذلك يعطي «أمل» الشجاعة.. شجاعة أدبية.. وثقة بالنفس لا حدود لها.. حين تتحدث معها.

وقررت أن تحاول أن تصنع شيئاً لتلك الفتاة، فربما نجحت معها كما نجحت مع أمها من قبل.

قالت لها وهي تمدُّ يدها إليها:

- أنت تعرفين أنني من بلاد العرب، وأن العرب لهم دينهم الذي يتمسكون به (ثم أردفت):

نحن في مجال الصناعة متأخرون عنكم.. إن الحضارة ليست وقفاً على أمة دون غيرها، فهي تنتقل بين الأمم، ولعلك ربما لا تعرفين أن العرب في وقت مضى كانوا أكثر حضارة من غيرهم.. هذا أمر لا أظن أنك تخالفينني فيه، وبخاصة إذا كنت قرأت في كتب الحضارة، ومع ذلك فحتى هذا اليوم نحن لسنا متخلفين في كل شيء كما تتوقعين!! بل هنالك مجالات نحن فيها متفوقون جداً.

- مجالات؟؟ مجالات أخرى.. مثل ماذا؟

- ألست ذكرت لي بكل صراحة ما تبذله المرأة هنا من جهد لكي تظفر بالزوج؟

هزَّت «جين» رأسها علامة الموافقة.

فواصلت «أمل» حديثها قائلة:

- في بلادنا يحدث العكس، الرجل هو الذي يطلب المرأة، المرأة عندنا ثمينة غالية، لا يجدها على الرصيف، ولا ينالها بوجبة عشاء، ولا يخاصرها في قاعة رقص ماجن، إنه يتيه شوقاً لرؤية وجهها، ويذوب رقة، لو ساعده الحظ أن يسمع صوتها، ويبذل مجهوداً مالياً لكي يقدمه لأهلها عربوناً على صدقه في الزواج منها؛ نحن نسميه الصداق، وهي إذا تزوجته تشعر بأنها ملكة متوجة في منزلها، وهي تحب من أجله والديه.. وهو يغار عليها حتى من أخيه، فضلاً عن أصدقائه، فالذين لهم حق في رؤيتها هم أولئك الذين لا حق لهم بالزواج منها.. صدقيني إن ذلك مبعث إعجاب، حين تجد أنها تعني له كل شيء.. إن الجمال عنصر مهم لا شك، وزوجها حين تغلق أمامه السبل سيراها وحدها الجميلة، وهي تظل كذلك، تراه دائماً فارس أحلامها، لكنها بمرور الزمن تستبدل ذلك الجمال الجسدي بجمال الروح والخلق، الذي تتحلى به.. إنها لو اعتمدت فقط على جمالها الجسدي لانتهى أمرها حقاً بتجاوزها الأربعين، لكنك تعجبين أن المرأة بل والرجل يزداد قيمة

وقدراً عند أبنائه وبناته، كلما كبرت سنه ووهن عظمه، يظل مؤمناً أن شباب أبنائه وأحفاده شباب له، فيده الواهنة سوف تمتد لها بكل الحب والعطف سواعد أبنائه الشابة القوية، صدقيني إنَّ نفوذه يغدو أقوى. . و كلمته تسمع أكثر، ورأيه الذي هذبته التجربة يغدو محترماً أكثر من ذي قبل.

هل أقول لك كيف يبدأ الأبناء صباحهم بتقبيل يد ورأس كل من الأب والأم معاً؟ وتغدو كلمة التحية نغمة شجية آسرة تكشف أن معاناة الوالدين في تربية أبنائهما لم تذهب أدراج الرياح؟

هل أحدثك عن الاحترام في الجلوس بل وفي الحديث؟ فالوالدان لا يقاطعان ولا يجابهان بما يسيء إليهما. . تصوري حتى كلمة (أُف) محرم علينا أن نقولها لوالدينا؟ تصوري أننا نرى السعادة الأبدية في الآخرة تنطلق من الطاعة والحب والرعاية لهما، ترى كيف أشرح لك معنى أن الجنة تحت أقدام الأمهات؟ إنها عبارة تعني الكثير. . الكثير. . ؟؟هل يستوي هذا مع الذين يضيقون ذرعاً بوالديهم، ويذهبون بهم إلى دور الملاجيء؟؟ وما أكثرهم هنا. . !!!

ثم إن أطفالنا يرون مشاعر الود التي يحف بها آباؤهم

والديهم فينشأون على ذلك، ويتبارون فيما بعد ذلك، على أن يكونوا أكثر براً وحناناً وعطفاً . . .

كانت تتحدث و«جين» تنصت بكل اهتمام، إذ قطع عليهما الحديث صوت «مسز بودي» تدعو «جين» وتخبرها أن أحداً يطلبها على الهاتف، فنهضت جين قائلة :

- حديثك رائع يا «أمل»!! إن كان ما ذكرت حقيقة فهذه هي السعادة بكل ما تعنيه هذه الكلمة (ثم أردفت) : أهم شيء أن يبقى الاتصال بيننا بعد سفري . . أتعدينني بذلك؟

- نعم أعدك .

ثم صعدت «جين» المرأة الأمريكية التي كان من المستحيل تماماً أن تكون بهذه البساطة والعفوية والعاطفة الحميمة، لكن مجيئها إلى أمها، وبقاءها مع «أمل» و«منار» طوال الأسبوع الماضي أحدث تغييراً ليس من العسير اكتشاف وجوده .

* * *

الفصل السابع عشر

هاهي ذي سبع سنوات مضت قضاها «عبد المحسن» وأسرته في الغربة في هذا البلد الغريب البعيد. . لقد استطاع أن ينهي مرحلة الماجستير ومن بعدها الدكتوراة بمدة قياسية وجيزة. . ولقد تمكن أن يحيل الوقت إلى إنتاج. . فكانت ساعات يومه تعني الشيء الكثير.

وشتاء «كلورادو» الكثيرة أيامه، الطويلة لياليه، استطاع بالسَّهر والجدِّ والمثابرة أن يحيل برودة جوِّه القارس إلى دفء يسري في أوصال الليالي الشاتية، كان الهدف كبيراً رائعاً مؤتلقاً، وكان يشعر أنه في كل يوم يخطو خطوة في الاتجاه الصحيح لتحقيق ذلك الهدف. . لم تكن علاقاته الاجتماعية، ونشاطاته الثقافية، وقبل ذلك دراسته العلمية المتخصصة، لتمنعه من التفوق في كل تلك المجالات.

حلَّت البركة في نفسه ووقته، فأصبح نهراً يتدفق حيوية ونشاطاً، كان يتنازعه شوقه إلى بلده، وألفته للحياة التي تعودها هنا.

ومع كل ذلك فإن شوقه إلى بلده يزداد كلما اقترب موعد انتهاء بعثته، وعودته إليه.

وفي اليوم ما قبل الأخير للرحيل، جلس يتحدث مع زوجته «أمل»، قال لها:

- إنه موعد طالما خشيته، خشيت ذلك اليوم الذي أقف فيه مودعاً لإخواني هنا.. إنهم هم الذين جعلوا للحياة طعماً ومذاقاً.. إن طعم الفراق مرٌّ المذاق.. لكنه لابد منه.

ردت عليه:

- ما رأيتك مشحوناً بالعواطف إلى هذه الدرجة قبل هذا اليوم.. كنت تبدو لي طوال الأعوام السابقة شامخاً لا تفكر في الأشياء الصغيرة، ولا تتوقف عندها.. عندما عدت أمس من حفلة الوداع، رأيتك منفعلاً جداً.. رأيتك نبعاً من الانفعال والتأثر.. أنا لا ألومك.. لكنني اكتشفتك على حقيقتك العاطفية، التي تخفيها دائما وأبداً بالجد المتواصل، الذي لا يتيح وقتاً للعواطف.

ثم توقفت وقالت متسائلة:

- ولكن.. ماذا قلت لهم؟

- أصدقائي قالوا كل شيء.. لم يبق لي أن أقول شيئاً أبداً.

- هل اعتذرت عن إلقاء كلمة في حفلة الوداع التي أقيمت لك؟

- لا . . ولكن المشاعر الكبيرة التي امتلأت بها نفسي لم أستطع أن أعبِّر إلا عن القليل منها . . شعرت حقاً أن لساني يعجز عن التعبير، كان حبهم وتقديرهم ووداعهم يعني لي الشيء الكثير . . وأين؟ هنا في أمريكا بلد المادية والمشاعر الميتة!

- أنت شاعر . . !!

- ليتني كنت كذلك، ربما استطعت أن أعبِّر تعبيراً أفضل عما أكنُّه نحوهم، كان موقفاً صعباً . . حلاوته في صعوبته، (ثم توقف عن الكلام) وسألها قائلاً:

- وأنت ما أخبارك؟

- لست أقل منك حرجاً من التعبير عن عواطفي نحو الأخوات زوجات المبتعثين والنساء الأمريكيات المسلمات . . كانت مشاعري تفيض وأنا أسمع كلمات المحبة منهن.

قاطعها قائلاً:

- و«مسز بودي»؟

ضحكت، ثم استطردت:

- «مسز بودي» كانت تبدو أمّاً للجميع، وإن كانت لا تستطيع أن تخفي عواطفها الشخصية نحوي.. قلت لها:

- اذكرينا بالخير.

قالت بنغمة حزينة:

- دعي الذكرى يا ابنتي لمن ينسى.. أما أنا فلن أنسى أبداً الأيام الرائعة معكم.. وكم كنت أود أن تستمر.

ثم توقفت «أمل» لحظة قالت بعدها:

- حتى ابنتها «جين»..؟

- ماذا بها؟

- اتصلت هاتفياً مودعة.. قالت «جين» كلمات معبرة.. وكان آخر ما طلبته أن أقبّل عنها ابنتي «منايز» وابني «سعد»، قالت إنها أحبتهما من كل قلبها.

- عندي اقتراح يا «أمل»؟

- وما هو؟

- نلقي النظرة الأخيرة على المدينة.. مدينة «دنفر» التي قضينا فيها سنوات من أعمارنا.. يا إلهي، ما كنت أعلم

أنها بهذه المنزلة من نفسي!!

- سبحان الله!! أنت الذي تطلب مني ذلك يا «عبد المحسن»؟

- وما العجب في الأمر؟

- لقد كنت تعتذر دائماً عن مثل هذا الطلب.. واليوم أنت الذي تطلبه بنفسك؟

- سبحان مغير الأحوال..

- لقد كنتَ عملياً أكثر من اللازم.. شغلتك دراستك وأبحاثك.. وأسرتك ومشاركاتك المتعددة.. وجاء اليوم الذي تشعر فيه بأهمية مثل هذا الأمر الصغير.

وحانت منها التفاتة إلى ساعة يدها فقالت في تعجب:

- سبحان الله.. مضى الوقت بسرعة.. بعد قليل ستحضر عدد من الصديقات لوداعي قبل السفر إلى المملكة.

وقالت بشيء من الدعابة:

- ومعنى هذا أن تترك لنا البيت لنأخذ فيه راحتنا، وتخرج من البيت من غير مطرود.

- يعني في هذه المرة أنت تعتذرين . . وليس أنا (ثم أردف بضحكة رقيقة) : - اللهم فاشهد .

خرج من المنزل وهو مليء بمشاعر متضاربة، كلٌّ منها يبدو منطقياً أكثر من الآخر، ولذا تزاحمت على فكره ذكريات ومشاعر وأحاسيس متعددة، طاف في نفسه وميض الشوق إلى المملكة، وعاودته مشاعر الحنين إلى الماضي، إلى أيام دراسته الأولى في أمريكا .

قادته قدماه إلى أول مكان سكنه مع أسرته الصغيرة في الفندق الصغير الذي قضوا فيه الأيام الأولى قبل أن ينتقلوا إلى منزل «مسز بودي» .

في جولته تلك لم يستطع البقاء في مكان واحد . . تمنَّى لو استطاع أن يكون في عدة أمكنة في وقت واحد، ذهب إلى السوق التجاري، استهوته بضائع السوق، وطرائق عرضها المدهشة، وحينما ذهب هناك ودّ لو ألقى نظرة وداع على الحديقة التي طالما أمضوا فيها أوقاتاً للنزهة، وتناول وجبات ساخنة من مطاعم الوجبات السريعة .

بدا هذا اليوم أقصر يوم في حياته، فهو لا يقر له قرار، شعر أن مشاعر الوداع تحمله على الحب حتى لأشياء لم يكن

يحبها من قبل، لقد عاش في (ولاية) اشتهرت بأحسن المواقع لمزاولة رياضة التزلج على الجليد في سفوح جبال «روكي»، ومع ذلك فلم تخطر له هذه الرياضة على بال، أما اليوم فيتمنى لو أنه أعطاها بعض اهتمامه، ومارسها ولو لبعض الوقت.

و(المايونيز) الذي لم يكن يستسيغه، وجده هذا اليوم بالذات مدهشاً، وندم على السنوات الماضية التي كان يعاف فيها (الهمبرجر) إذا كان فيه (مايونيز).

في الأيام الماضية وطوال سنوات إقامته، كان يذرع المدينة جيئة وذهاباً عدة مرات، أما اليوم فقد شعر أن قدميه تلتصقان بالأرض، وأنه يقتلع خطواته منها اقتلاعاً.. وأن لكل هذه الأماكن أذرعاً ممدودة تمسك به، وتطلب منه البقاء.

وحين بدا عليه التعب من كثرة المشي والتجول، قرر أن يعود إلى منزله؛ لأنه لن يستطيع أن يسير إلى ما لا نهاية، فما شبعت أذن من خبر، ولا عين من نظر!

في صباح اليوم الأخير من سنوات البعثة الدراسية في أمريكا، وفي الدور الأرضي في منزل «مسز بودي» رقم ٢٤

في «أفينو بلس» كانت هناك حركة غير عادية، وكان الأربعة «عبد المحسن» وزوجته «أمل» وابنتهما «منار» وابنهما الصغير «سعد» يزمعون الرحيل، وكان هنالك ما يقرب من الساعتين ليصل بعدهما أحد زملاء الزوج لنقلهم إلى المطار.

كانت «مسز بودي» لا تكاد تصدق ما يحدث، نور غرفتها مضاء طوال الليل مما يدل على سهرها، وأنه لم يغمض لها جفن، في ليلة من أطول ليالي العمر.

عرفت «أمل» ذلك فصعدت إليها، ضمتها إلى صدرها بحنان بالغ، فبدت تلك العجوز ترتعش كأنها طفلة صغيرة في حضن أمها، قالت «مسز بودي»:

- أنتم تطلبون مني شيئاً لا أستطيعه.. أنتم تطلبون مني أن أودِّعكم.

ومضت في نشيج متقطع، انحسر جبل الجليد عن نبع دافئ رقراق. كانت تردد:

- لا أستطيع.. لا أستطيع أن أتصور رحيلكم عني.. كل ما أحتاج إليه من حب وعطف وحنان.. هو معكم، وعندما ترحلون لن يبقى شيء منه هنا..

كانت أمل تضمها إلى صدرها، وتكلمها بلطف، تعدها أنهم سيبقون على اتصال بها، وأنهم لن يتركوا الحضور إلى هنا كلما كان ذلك ممكناً.

في هذا الوقت شعر «عبد المحسن» بأن أمامه ساعتين فقط، عليه أن يشغلهما، فلم يتمالك نفسه من الذهاب إلى المسجد، الذي لم يشبع من النظر إليه، ولم تمتلىء عينه منه، غدا ذلك المبنى المتواضع كأنما هو ابن من أبنائه... كان سعيداً جداً وهو يرى في كل إقامته ما يدعوه للفخر والاعتزاز.

ياإلهي، فرق كبير بين من يسيء ومن يحسن!!!

من يسيء تضيق عليه الدنيا بأكملها! بعضهم يضطر في سبيل إخفاء إساءته إلى تغيير التخصص والجامعة، بل يغير الولاية كلها فينتقل إلى ولاية أخرى هرباً من شبح الماضي الذي يطارده.

ومن يحسن يشرق وجهه كلما ذكر المكان الذي أحسن فيه، أو الناس الذين أحسن إليهم.

انتابته رعشة وهو يقف على مقربة من المبنى المتواضع للمسجد، كان ما يزال مجرد مبنى صغير... واقترب

منه . . قدماه تمضيان به إليه . . بجانب باب المبنى كان هنالك إعلان عن حفلة الوداع التي أقيمت له . . . لم يُرفع الإعلان بعد . . المطر يهطل بهدوء . . بهدوء ، ورذاذه يصافح وجهه فيحدث فيه انتعاشاً غريباً ، هنا كان موعده مع مشاعر اضطربت في فؤاده . . لا يعرف كيف يستطيع أن يحبس دمعة انفرطت من عينه ، وهو يشعر أنها النظرة الأخيرة التي يلقيها على هذا المكان الذي سكن في أعماق قلبه .

ووجد يده تمتد إلى الإعلان ، فإذا به ينزعه برفق ، ثم يطويه بعناية بالغة ، ويضعه في جيبه ليكون ذكرى باقية :

لماضٍ أزهاره لا تذبل ،
ونجومه لا تأفل ،
ولأيَّام لا تمَّحي ذكراها مع الأيَّام .

* * *

تمَّت

قالوا عن الرواية

غني عن الذكر، القول بأني استمتعت بقراءة هذه الرواية لما تحمله من معانٍ سامية، ومن رسالة عالية المغزى، ولقد عبرتم عن تجربة كثير من الشباب السعودي - ولله الحمد - أجمل تعبير.

وزير العمل والشؤون الاجتماعية

أ. د. علي بن إبراهيم النملة

محاولة جادة على طريق الأدب الإسلامي، جديرة بالقراءة والتنويه، وسط الأدب الروائي الذي سقط معظمه الآن في التعبير عن الجنس، فلا نكاد نبصر رواية تخلو من مشاهد جنسية مفتعلة.

ولعل الدكتور عبدالله العريني يفيد من هذه التجربة، فيكتب لنا أدباً إسلامياً متميزاً على طريق السرد، ويكون قامة متميزة في الإبداع الروائي الإسلامي بعد: علي أحمد باكثير، ونجيب الكيلاني.

د. حسين علي محمد

مراجعات في الأدب السعودي

سجل الكاتب لعبد المحسن (بطل الرواية) ولزوجته مجموعة

من المواقف المشرفة، ووجه من خلالها رسائل غير مباشرة للشباب السعودي والمسلم عموماً، في أسلوب أدبي رفيع ولغة رشيقة راقية، وحبكة روائية محكمة، مع مضمون نبيل هادف بناء، فجمع في عمله هذا بين المستوى الراقي، والمضمون الهادف النبيل، وهذه هي الرسالة الحقيقية للفن الأدبي عموماً، والروائي بصفة خاصة.

د. محمد بن خالد الفاضل

صحيفة (المدينة - ملحق الأربعاء الأدبي)

١٨ ذو القعدة ١٤٢٠هـ

لقد مثلت هذه الرواية واقعية إسلامية فريدة، حيث لامست واقع المجتمع السعودي النقي وجسدت - حتى في أدق تفصيلاتها - ما يدور في الأسرة السعودية من حوارات وهموم ورغبات.

وقد استقت مادتها من حياة الناس، ورسمت شخصياتها من واقعهم حتى إنك لتحس عند قراءتها بأن أبطالها من مجتمعك الصغير، يعيشون ما تعيش، ويخوضون التجارب الشعورية ذاتها التي تخوضها... لقد حقق الدكتور العريني في روايته هذه ولادة جديدة حقيقية للرواية السعودية.

د. حبيب بن معلا المطيري

صحيفة (الرياض) ١١ رجب ١٤٢٠هـ

هذه الرواية جميلة المعنى والمبنى، وأجمل ما فيها - بعد هدفها النبيل - أنها مصوغة بأسلوب مشوق متماسك ذي لغة شاعرية

ويكفي الجزء الذي جاء في خاتمتها دليلاً على ذلك وهو قول المؤلف (المطر يهطل بهدوء...).

د. عبدالله سليم الرشيد

مجلة (الأسرة) ذو الحجة ١٤٢١هـ

تعد (دفء الليالي الشاتية) فتحاً في تاريخ الرواية الإسلامية على وجه العموم، والرواية السعودية على وجه الخصوص، يحق لنا أن نفخر بها.

لطيفة فهد القباع

مجلة (المجلة العربية) شعبان ١٤٢١هـ

يمكن أن تسهم رواية (دف الليالي الشاتية) في الكشف عن جانب من التحول الفني والفكري في الرواية المعاصرة، برغم أنها أول رواية للكاتب، وهذا مما نعتدُّ به في التشكيل الإسلامي للرواية العربية. فهي من نماذج الأدب الإسلامي التي نعتدُّ بها في تمثيله، قلباً وقالباً.

أ. د. سعد أبو الرضا

صحيفة (الجزيرة) ٤ ربيع الآخر ١٤٢٢هـ

تنفيذ الطباعة والتصميم والإخراج
دار إشبيليا للنشر والتوزيع
هاتف: ٤٧٤٢٤٥٨ — ٤٧٧٣٩٥٩ - ٤٧٩٤٣٥٤

٢ روايات الأدب الإسلامي

الدكتور عبد الله بن صالح العريني

تدور أحداث هذه الرواية في (إندونيسيا) أكبر بلد إسلامي حيث يعيش (أندي) الشاب البسيط ظروف الحياة هناك، وحيث لا مفر من الكفاح المضني لتخطي المشكلات التي واجهته.

يمثل (عبد المحسن) وزوجته (أمل) بطلا الرواية نموذجاً ناجحاً للحفاظ على الهوية والوعي بقيمة الذات ، مع إصرار كامل علي التفوق

كما تمثل هذه الرواية السعودية لقاء متميزاً بين الحضارة الإسلامية في جمال أخلاقها ، و سموأهدافها ، وروعة مبادئها ، والحضارة الغربية وعطاءاتها العلمية المتعددة .

والمؤلف من خلال هذه الرواية يؤكد إمكانية ترويض الفن الروائي ليحمل المضمون الخيِّرالنبيل الهادف ، بإسلوب مشرق جميل وهذا ما تحقق فعلاً في (دفء الليالي الشاتية) التي هي رواية جديرة حقاً بالقراءة .

توزيع :
مؤسسة الجريسي للتوزيع و الإ
ص.ب: ١٤٠٥ الرياض ١٤٣١
هاتف: ٤٠٢٢٥٦٤ - فاكس: ٤٠٧٦

AL-OBEIKAN